Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

ابو الشباب

محمود يتمور

دار المعارف بمصر

أبو الشوارب

وقصص أخرى

893.7T136
M33

الطبعة الأولى — سنة ١٩٥٣م

جميع الحقوق محفـــوظة للمؤلف

محمود تيمور

أبو الشوارب

وقصص أخرى

دار المعارف بمصر

أبو الشوارب

بارح « عاشور أفندى » — أو بالحرى : « الشاويش عاشور » — داره فى الضحوة العالية ، تاركاً بلدته « كفر الشمارنة » ، ووجهته ضيعة « الحاج رمضان » ، وكانت الضيعة على مسيرة نصف ساعة من ذلك الكفر .

ومضى الرجل يقطع الطريق الترب الذى تتعاقب فيه الفجوات ، وهو مرفوع الهامة ، مبسوط القامة ، يضرب الأرض بخطوات متزنة ثقال ، هى خطا الشرطىّ الأصيل ، وشاربه الضخم المسنون الأطراف يهتز فى خيلاء .

كانت شارة الشرطىّ وشياته تتجلى فى كل مظهر من مظاهره ، وإن تخلت عنه تلك الحلة العسكرية ذات الشرائط المقصبة ، والأزرار النحاسية البراقة . . . فقد أصبح حراماً عليه أن يرتدى هذه الحلة منذ أشهر سلفت ، إذ أحيل إلى التقاعد ، فاستبدل بها الجلباب الفضفاض المتهدل الكمين ، الكاشف عن النحر ، يخبّ فيه خبًّا .

لقد استقبل « الشاويش عاشور » رسولا من « الحاج رمضان » يدعوه

أن يزوره فى ضيعته ، ولم يكن قد رآه قط ، وإن سمع به ، وعرف أكثر شأنه . . . « فالحاج رمضان » غِطريف من غطارفة الريف ، يمتلك ضيعة رحيبة الأرجاء ، تتيح له أن يحيا فى بسطة من العيش ويُسر ، وإنه لعظيم قومه ، لايكاد يعلو عليه أحد من عُشرائه وجِيرَتِهِ فى الغنى والجاه ورفعة المقام . . .

لم يكن فى وسع « الشاويش عاشور » إلا أن يستجيب لهذه الدعوة ، وإن كان فى قرارة نفسه لا يستجيب عن طواعية وترحيب ، فقد استقر به المقام فى مسقط رأسه « كفر الشمارتة » ، وقد بنى عزمه على أن يُمضى فيه ما كتب الله له من أيام ، مستمرئاً السكينة والهدوء ، متنكباً عن زحمة الحياة ، متزهّداً فى صحبة الناس ، ولا سيما أولئك الوجهاء والأعيان من ذوى الأسماء النابهة والجاه العريض . . .

حَسْبُه من الضجة والصخب ما لقى فى سِنِيه الثلاثين اللواتى أمضاهن فى دار « المحافظة » بالقاهرة ، إذ كان يحيا فى أكناف عصبة من الرؤساء ، يملأون الدنيا دَوِيًّا بألقابهم الطنانة ، ومناصبهم المَهِيبة ، ويرى نفسه ظلا من ظلالهم التى تتبعهم أينما كانوا ، أو مطية من مطاياهم التى تنقاد لهم فيما أرادوا ، أو عصاً من عِصِيِّهم يُلوّحون بها فى وجوه الناس تارة ويلهبون بها أجسادهم تارة أخرى . . .

وهل يذكر « الشاويش عاشور » إلا أنه كان خلال تلك الحقبة

المديدة يجد نفسه كأنه دُمية تتحرك بلولب ، فهو فى يومه الأطول ماثل يرفع يمناه ويهبط بها فى حركة آلية ليؤدى تحية قدوم أو تحية وداع ؟... وما كانت دار « المحافظة » تخلو ساعة من عظماء وأشباه عظماء ، ومن رؤساء وأشباه رؤساء ، لزام عليه أن يحييهم كلما لاحت أشباحهم من بعيد فى قدوم أو انصراف .

لا غرو أن يستشعر الرجل ضيقاً بهذا النفر من خلق الله الذين يمشون فى الأرض مرحاً ، تشمخ أنوفهم كبراً ، ولكن ضيقه بهم يتضاءل بل يتزايل إذا وُوزن بما يحس من الكراهية والبغضاء لرئيس له عمل معه أثناء السنوات العشر الأخيرة من خدمته ، وهذا الرئيس هو « عشماوى المحافظة » أو بتعبير واضح : جلادها الأعظم « الحاج درويش » .

كان « الشاويش عاشور » ظلا حقاً لهذا « العشماوى » ، ولكنه ظلّ ناصل هزيل . . . قُصارى مهمته معه أن يأتى إليه بالجانى المحكوم عليه بالإعدام ، من حجرة السجن إلى حجرة المشنقة ، يسوقه كما تساق الشاة إلى المذبح ، ثم يلبث معه حتى يشهد تنفيذ الحكم ، ثم يرافق الجثة حتى يتسلمها ذووها من يديه . . . يا له من عمل خطير كان يؤديه . . . لا يكاد يوردُ بضاعة حية « للحاج درويش » حتى يتلقاها منه رفاتاً هامداً تَعْمُر به القبور .

وألفى « الشاويش عاشور » نفسه قد بلغ مَشارف الضيعة التى يملكها

« الحاج رمضان » ، فقد لاحت له أبنية ريفية غير متناسقة ، وإنها لعتيقة عبثت بها يد البلى ، فمال بعضها على بعض تخشى أن تسقط ، أو تريد أن تنقض ، وقد أحاطت بها شجيرات « العبل » ، وانتثرت حواليها نخيلات عجائز . . .

وانقضت زيارته لربّ الضيعة ، فانصرف من لدنه راجعاً أدراجه إلى « كفر الشمارتة » ، وما إن خطا بضع خطوات حتى جعل يضرب جبهته بكفه ، وقد احتقن وجهه بغتة ، وأخذ يردد :

كلا . . . لن يكون ذلك . . . هيهات !

وثار على نفسه : كيف سارع إلى قبول ما عرضه عليه « الحاج رمضان » ، إذ رغب إليه فى أن يعمل عنده شيخاً لخفراء الضيعة . . . كيف أذعن لذلك دون روية ولا تدبر ، كأنما هو يتلقى قدراً محتوماً لا معارضة فيه ولا نزاع ؟ . . . كلا ، لن يقبل أن يعمل عند أحد ، وإنه لعائد فى بكرة غده ليُنهى إلى ربّ الضيعة اعتذاره .

وسار فى الطريق ، مضطرب الخطو ، يسرع حيناً ويبطئ ، ويده لا تنى تلمس لبدته المتعالية ، موهماً نفسه أنه يصلح وضعها على رأسه .

ما أعجب ما شهد فى هذه الزيارة . . . يا لله لهذا الشبه القريب بين « الحاج رمضان » رب الضيعة وبين غريمه القديم « الحاج درويش . . . عشماوى المحافظة » . . . لولا علمه على وجه اليقين أن « الحاج درويش »

الجلاد قد بات اليوم فى ذمة المنون لما شك فى أنه هو نفسه « الحاج رمضان » . . . لقد أقبل « عاشور » يُحيّى ربّ الضيعة فى منظرة الضيوف ، فرآه ماثلا وسط الحجرة ، فى قوام متكتل كأنه كرة مفرطحة ، ورأس ضخم يختفى تحت عمامة محبوكة ، ووجه مطهّم هادئ القسمات ، وعينين تنسدل أجفانهما أو تكاد ، وأصابع تنقّل حبات السبحة فى رفق ، فما إن ملأ منه عينيه حتى أخذته البغتة ، وأوشك أن يصرخ قائلا :

إن « عشماوى » المحافظة قد بُعث ثانية إلى الوجود !

ولم تكن منظرة الضيوف خالية من زوار يتحلقون حول « الحاج رمضان » ، فاحتسى « عاشور » القهوة معهم ، وبادلهم كلمات المجاملة ، وطارحهم الحديث فى بعض الشئون ، وما لبث أن ألفى نفسه يقص على مُضيفه طرفاً من أحداث حياته ، ويجيب عن أسئلته واستفساراته ، وقد أحس من فوره هيبة له ، وما هى إلا أن استسلم لما عرضه عليه من العمل معه فى الضيعة شيخاً للخفراء .

وكان حقاً على « الحاج رمضان » أن ينتهز هذه الفرصة فى استخدام « الشاويش عاشور » بعد أن تقمّد ، فهذا شرطىّ عمل فى « المحافظة » عشرات السنين ، فله بالضبط والربط خبرة ودُرْبة ، وفوق هذا كله شارب غليظ مسنون الطرفين يبعث الهيبة والتوقير ، بل إن هذا الشارب وحده كفيل بالإيثار والاختيار ، فمن أولى من ذلك الرجل بمنصب « شيخ الخفراء » ؟ .

لقد تم الاتفاق . . . ووعد « الشاويش عاشور » بأن يتقدم من غده ليتسلم عمله ، ولكن الرجل سيقدم غداً لا ليتسلم عملا ولكن ليصارح ربّ الضيعة بأنه لن يعمل البتة عند أحد ، لا عدول عن ذلك ولا مرجع .

ماله و « للحاج رمضان » وضيعته ؟ وماله و « لمشيخة الخفر » ؟ ألا فليدعه الناس لشأنه ، فقد طابت نفسه بانتهاء عمله فى « المحافظة » ، وخلّف وراءه أشلاء هذه الحياة التاعسة هنالك على باب تلك الجدران العالية البالية فى « باب الخلق » ، وهو اليوم يبدأ حياة جديدة فى « كفر الشمارتة » ، حياة تتسم بطابع الطمأنينة والقنوع ، حيث يعايش هذا النفر الطيب من جيرانه وإخوانه أهل الريف ، فيقضى معهم بعض وقته فى مؤانسة وسمر . . .

كان حُلمه العزيز فيما سلف من أيامه أن يهنأ بعزلة وانعكاف ، خالصاً من التبعات والقيود ، وقد آن له أن يستمتع بتحقيق هذا الحلم فى دعة وسكون .

لقد ختم حياته الغابرة ، وما هو بعائد إليها فى صورة من صورها على أى حال تكون .

« الشاويش عاشور » مات بالأمس ، بعد أن مات رئيسه « الحاج درويش . . . عشماوى المحافظة » ، ولن يُبعث ثانية فى صورة شيخ الخفراء طمعاً فى الغُنْم ، أو طلباً للإمرة ، أو التماساً للشهرة . . . فهو راض بما

قسم الله له من عيش ، وهو فارغ القلب من شهوات الحياة ونزوات التحكم والسلطان .

يا لها من ذكريات ماضية . . . شدّ ما لاقى من عنت وإرهاق فى عمله الحكومىّ السابق ، ولا سيما فى صحبة ذلك « العشماوى » النَّكِد ، ذلك الذى صبَّت عليه الأقدار لعنة الأبد ، فسخّرت يده لضرب الرقاب وإزهاق الأرواح !

لقد شعر بالاشمئزاز من هذا الجلاد العتىّ منذ التقيا أول مرة ، فاستحكم بينهما عداء . وإنه ليذكر ذلك اللقاء الأول . . . لما ساق إليه الجانىَ المحكوم عليه بالإعدام ، ونفذ فيه الحكم ، وخلت القاعة من شهود التنفيذ ، تقدم الجلاد فى خطا هينة من « الشاويش عاشور » وجعل يتفحصه بنظرات تومض من تحت جفونه المتراخية ، ثم قال له ساخر اللهجة : ما هذا يا حضرة « الشاويش » ؟ . . . لقد بدا عليك امتقاع وتخاذل ، حتى لقد توهمتُ أنك أنت المحكوم عليه . . . ما نفع هذا الشارب الغليظ ؟ خير لك أن تحلقه .

فهمهم الرجل مخنوق الصوت : ما هذا القول ؟ ماذا تقصد ؟

ـ لستَ كفئاً للعمل معى فى حجرة المشنقة . . . أقسم لك برأس أبى إن يدك لم تقبض يوماً على سكين لتذبح بها دجاجة .

وشملت « الشاويش » حيرة بالغة ، وغمغم فى تلعثم :

كيف ذلك ؟ وما أدراك بى ؟ إن هذا الكلام يسىء إلى سمعتى .

وأقبل عليه « الحاج درويش » يحدّ نظره إليه ، فازداد الرجل من حيرة وارتباك ، فقال الجلاد فى لهجة المسيطر : اصْدُقنى القول . . . هل ذبحتَ فى حياتك دجاجة ؟ . . . قل ولا تخف . . . اعترف .

وجمجم « الشاويش » وهو يُزيغ بصره عن الجلاد :

الحق أنى لم أفعل . . .

— أرأيت أن حَدْسى لم يخطئ ؟ . . .

وبسط الجلاد يده ، وطفق يُربّت كتف « الشاويش » وهو يقول : خليق بك وأنت « شاويش المحافظة » ولك هذا الشارب الغليظ المسنون أن تكون شجاع النفس ، لا ترهب منظر إزهاق الأرواح . اذهب فاذبح لك دجاجة ، أو على الأقل فَرّوجة ، فإن لم تستطع فاحلق شاربك ، فأنت به غير جدير !

وانصرف الجلاد من الحجرة رزين الخطوات ، والسبحة بين أصابعه ينقل حباتها الضخام ، وذكر الله يتردد على شفتيه فى وداعة وصفاء .

وقصد « الشاويش » من فوره إلى حجرته الخاصة فى « المحافظة » ، أو على الأصح : جُحره المعتم العتيق . . . ومَثل أمام حطام من مرآة معلقة على الحائط ، ينظر إلى شاربه الغليظ المسنون ، ذلك الرفيق الكريم الذى خصه « الشاويش » بالحبّ والتكريم ، وبذل فى الحفاوة به وُسعه ،

يضمخه بالدهون ، ولا يألوه من تشذيب وتمشيط ، ويسنّ من طرفيه فى إحكام وإرهاف . . . وأخذ يردد فيه النظر ، وهو يتحسر : أحقاً أنه غير جدير أن يحمل هذا الشارب العظيم ؟ وما لبث أن امتدت أصابعه إليه يفتله ، وكأنه يعتذر إليه ويستغفره .

قضى « الشاويش عاشور » يومه فى « المحافظة » وأقوال الجلاد تحاصره . . . ما أشد خجله من حاله المزرية . . . كاد مشهد تنفيذ الإعدام أمامه يودى به . . . وفى ذلك عار جسيم ، فلزام عليه أن يستدرك هذا الضعف من نفسه ، وأن يكون كفئاً للمهمة التى يمارسها غير خوّار ولا هيوب .

ومما زاده ضيقاً على ضيقه أنه اعترف للجلاد بأنه لم يذبح دجاجة فى حياته . . . لم يكن أحد يدرى ذلك عنه ، فما باله يذيع سره الخفى ؟ . . . لا ريب فى أنه يعاف الذبح ، ولا يطيق منظر الدم المسفوك ، ويمقت إزهاق الأرواح كل المقت ، ولكن هذا كله لا يلائم مهمته التى نيطت به ، وتعلقت بها رجولته وكرامته . . .

ذكريات مريرة تواردت على مُخَيِّلَة الرجل ، كأنها أسراب النحل تلسعه ، فشق عليه طريقُه التَّرِب غير الممهود ، وهو يتابع سيره عائداً إلى بلده « كفر الشمارتة » بعد أن لبّى « الحاج رمضان » ربّ الضيعة ، وقبِل ما عرضه عليه من العمل عنده شيخاً للخفراء .

وما فتئت الذكريات تلاحقه فى طريقه . . .

كيف مرت به هذه الأعوام العشرة الأخيرة التى تقضّت فى صحبة ذلك الجلاد العتىّ ، ومن كُتبَ عليهم أن تَطيح أعناقهم على مشنقته . . . لقد ألفَ « الشاويش عاشور » عمله ، فزايلته الرهبة ، ولم تعد تفزعه تلك الحجرة الغريبة التى تبدو فيها آلة الشنق ساذَجة الشكل تافهة المظهر ، بيد أن كراهيته لذلك الجلاد لم تهدأ ، بل تزايد أوارُها يوماً بعد يوم ، وإنها لكراهية عجيبة يخالطها إكبار وتمجيد ، على الرغم من إمعان الجلاد فى الزراية به ، والسخرية منه ، ومواجهته فى الحين بعد الحين بقوله :

فيم هذا الشارب يا حضرة ، وأنت لا تستطيع ذبح دجاجة ؟

لقد حاول « الشاويش » — مرات بعد مرات — أن يعالج ذبح فَرُّوجة على سبيل التمرين ، ولكنه باء بالخيبة ، فعوَّل على ألا يزاول ذلك مرة أخرى ، على الرغم مما يناله من تهكم لذّاع . فقد أصبح كل من تضمهم دار « المحافظة » من موظفين وعمال يتنادرون عليه ، ويتناقلون هذه النكتة العظيمة : « الشاويش عاشور » بجلالة قدره وبالرغم من فخامة شاربه لا يستطيع أن يذبح دجاجة !

وكان على رأس ذلك الجمع الزاخر عامل القهوة « عبد العليم » : رجل أنيق البِزّة ، رشيق المنطق ، يتباهَى بلباقته وظرفه ، فهو يجيد انتقاء ألفاظه المبرقشة ، ويتلفظ بها فى نغمات طليّة ، كما يحسن اختيار أثوابه الزاهية ،

ويتفنن فى حياكتها على أزياء مختلفة ، ويتردد فى أرجاء « المحافظة » متحدثاً إلى الموظفين والزوار فى تبختر واختيال . . . وقد اتخذ هذا الرجل من قصة « الشاويش » عاشور لقمة سائغة لا يفتأ يتشدق بها فى سخرية معسولة ، ظاهرها لين ورفق وباطنها أشواك كرءوس الحراب ، فهو لا يرحم من غمزاته ولزاته ، مثيراً حواليه ضجة من التضاحك والصياح ، وكانت سخريته به تدور حول النكتة الطريفة التى تصور « الشاويش » العظيم الشارب عاجزاً عن أن يذبح دجاجة . . . والعجيب أن « عبدالعليم » كان وهو يناوش « الشاويش » بتلك النكات يمضى فى مزاولة عمله فى مظهر مألوف ، وكانت العلاقة بينهما على الرغم من هذا كله تقوم على صفاء زائف مصنوع ، يُوارى تحته كامن البغضاء .

لم يكن « الشاويش عاشور » فى دخيلة نفسه راضياً عن ضعفه ، ولكنه اعتقد أن ذلك قضاء من الله لا مرد له ، وإنه ليذكر أطيافاً شاحبة لحادث وقع له فى بواكير صباه ، إذ تقدم ليذبح دجاجة ، وبينما هو آخذ بخناقها ، والسكين فى يده يوشك أن يهبط بها على رقبة الدجاجة ، إذا هى تتفلت من بين أصابعه ، وأحس منقارها الحادّ يعَض يده ، فصرخ يستغيث ، ولاذت الدجاجة بالفرار ، فلم يعثر لها على أثر . وشعر الصبى بعد حين بأن يده تتورم ، وأن ذراعه يصيبها خدَر ، وقضى أياماً يتوجع ولا تكتحل عيناه بالنوم من شدة الألم ، وكاد الطبيب يأمر بأن

تبتر يده ، لولا أن لطف الله به ، فشفى من جراحته ، وكان يرى فى أحلامه شبح شيطان مَخوف يتمثل له فى صورة دجاجة ، وينهاه أن يمس الدجاج يوماً بسوء . . . وتواصلت به الأيام من بعد ، تنسيه هذا الحادث الأليم ، ولكن يده ظلت ذاكرة يقظى لا تبيح له أن يَهُشّ بها على دجاجة .

تبدّل الآن كل شىء ، فما له وللدجاج وذبح الدجاج . . . لقد اعتزم اليوم أن يعيش ما بقى له من حياة فى بلدته الريفية الحبيبة « كفر الشمارتة » مسدلا ستاراً كثيفاً على ماضيه بخيره وشره ، أما رئيسه « الحاج درويش » الجلاد فقد غاله الردَى إلى الأبد ، وأما عهده البغيض فى « المحافظة » فقد انقشعت عنه أحداثه طاوية معها تلك الزمرة الكريهة من الرؤساء والموظفين والعمال ، ومن بينهم عامل القهوة الخليع « عبد العليم » . . . وإنه ليستمرئ اليوم عهداً جديداً خالياً من أسباب التنغيص لا عناء فيه ولا رَهق .

سيعود غداً إلى « الحاج رمضان » رب الضيعة ، وسيبلغه أنه يأبَى مشيخة الخفر لا محالة .

. . . وبعد أيام ألفى « الشاويش عاشور » نفسه يعمل فى ضيعة « الحاج رمضان » شيخاً للخفراء . . . وحاول غير مرة أن يناقش نفسه الحساب ، كيف تم ذلك على غير رضاً منه ؟ فلم يكن يخلص من مناقشة

نفسه ومحاسبتها إلا بأن ذلك قضاء مكتوب على جبينه ، وليس ثمة من قوة تستطيع أن تمحو ما هو مكتوب على الجبين !

لقد عاد يعمل ، وكأنه يراجع عمله القديم ، فهنالك مشابه بين يومه وأمسه ، وليس عمله فى مشيخة الخفر إلا امتداداً لعمله حين كان « شاويش المحافظة » ، حتى رئيسه « عشماوى » الجلاد يراه مبعوثاً إلى الحياة فى إهاب « الحاج رمضان » رب الضيعة .

ما أعجب التشابه بين هذا وذاك . . .

كان « الحاج درويش » الجلاد وديع المظهر ، أنيس المحضر ، يتقدم مسبل الأجفان إلى المحكوم عليه بالإعدام ، فيسوقه فى رفق وتلطف إلى المشنقة ، كأنه يسوق ضيفاً إلى مأدبة طيبة ، وكان يغطى رأس ضيفه بقناع يحجب وجهه كأنه يُتَوِّجه تأهباً لحفل بهيج ، ثم يأخذ بمقبض الآلة التاعسة ، والسبحة لا تفارق يده ، وابتسامة الدعة لا تتخلى عن فمه ولا يلبث أن يردد : « على الله توكلت . . . » ، ويحرك الآلة فى غمضة عين ، فيتردّى الجسد فى الهوة على الفور .

أليس هذا عينه مظهر « الحاج رمضان » فى ضيعته ؟ أوليس هذا سلوكه مع من يصب عليهم عذابه ممن يعملون تحت إمرته ؟ أو ليس شيخ خفرائه « الشاويش عاشور » يقف منه اليوم كما كان يقف بالأمس وهو « شاويش المحافظة » من رئيسه « عشماوى » الجلاد ؟ ألم يعاود عمله

فيما سبق ؟ إنه يقود الجانى أو بالحَرَى المحكوم عليه إلى ساحة الدوّار ، فيتقدم « الحاج رمضان » رب الضيعة وئيد الخطو ، فى قوامه المتكتل المكوَّر ، ورأسه الضخم المختفى تحت عمامة محكمة الوضع ، وعينه مسبلة الجفن أو تكاد ، والسبحة فى ذراعه معلقة ، وفى يمناه سوط ناعم الملمس كلسان الأفعى ، ولا يلبث أن يأمر بطرح الجانى ، ووضع قدميه فى الفلقة ، وما هى إلا أن يرفع السوط ويهبط به فى ضبط وإحكام على نحو هين رفيق . . . إنها ضربات معلم أصيل تصيب الأهداف فى غير جلبة ولا عنف . وبينما يجأر المضروب بالشكوى والتضرع ، يتابع « الحاج رمضان » عمله ، والابتسامة الوادعة تتخايل على وجهه المطهم ، ولسانه يلهج باسم الله مستعيناً إياه . . . فإذا انتهى تنفيذ الحكم ، تولى « الشاويش عاشور » تسليم المضروب إلى أهله ، والدم يشخَب من قدميه ، كما كان يفعل من قبل حين يسلم جثة المشنوق إلى ذويه .

يا لبشاعة ما يرى . . . إنه ليحس لهذا الجلاد الجديد ما كان يحسه من اشمئزاز ومقت للجلاد القديم .

ما أشبه الليلة بالبارحة . . . دنيا اليوم هى عينها دنيا الأمس ، أحداثها لم تختلف ، وأناسها هم لا تغيير ولا تبديل .

لكأن القدر يعيد له المآسى الماضية كما كانت ، وإن حاول أن يموّهها عليه بقناع جديد . . .

ولكأنما كان حتما أن تستكمل حياته اليوم عناصر حياته بالأمس جميعاً . . . فقد أضيف إليها عنصر لم يكن يخطر ببال « الشاويش عاشور » أن يظهر عوداً على بدء ، ففى ذات يوم ذهب الرجل إلى منظرة الضيوف ليراجع « الحاج رمضان » فى بعض الأمر ، فواجهه على الفور ضيف يجلس بجوار رب الضيعة ، يحتسى معه القهوة ، ومَثل « عاشور » مشدوهاً زائغ البصر ، وصافحت أذنه تلك اللهجة المعسولة التى انطبعت فى طوايا ذاكرته لا يمحوها كر الأيام ، فقد سمع الضيف يقول له :

أهلا بأبى الشوارب . . . مصادفة غريبة . . . كيف أنت يا صاحبى ؟

وألفى الرجل نفسه يرد التحية هزيل الصوت قائلا :

الحمد لله . . . مرحباً بك .

والتفت « الحاج رمضان » إلى ضيفه يقول له : أتعرفه ؟

فأجاب الضيف فى تشدق : كيف لا أعرفه ؟ لقد كنا معاً فى « المحافظة » . . . من يجهل « الشاويش عاشور » الرجل الطيب ؟ من ذا الذى يرى شاربه العظيم المسنون الطرفين ثم ينساه ؟

وهمهم « الشاويش عاشور » يقول : العفو . . . العفو . . .

وواصل الضيف قوله فى تلك اللهجة البريئة المظهر : إن « الشاويش عاشور » مثال الرقة والرحمة . . . إنه كالحمامة الوديعة . . . أتصدق أنه لم يذبح فى حياته دجاجة ؟

وفغر « الحاج رمضان » فاه ، وعقدت الدهشة لسانه ، وبعد هنيهة رفع صوته يتساءل : لم يذبح فى حياته دجاجة ؟

واتجه إلى « عاشور » يقول له : أحقاً ؟

ولم يملك الرجل إلا أن يجيب : هذا صحيح . . .

وتعالت الضحكة من أشداق « الحاج رمضان » رب الضيعة ، على حين ظل الضيف هادئ القسمات .

وفى الأيام التالية التى امتدت فيها إقامة عامل القهوة « عبد العليم » ضيفاً على « الحاج رمضان » كان يقص على ربّ الضيعة أشتاتاً من النوادر والمفاكهات يتناول فيها « عاشور » بلهجته الساخرة المُتَوَبْسَلَة ، متظاهراً بأنه يَتغنى بما اتصف به من رحمة ورقة ولطف .

وهكذا بُعثت حياة « الشاويش عاشور » السالفة كما هى ، لم يتخلف منها شىء .

وارتحل « عبد العليم » عن الضيعة ، تاركاً وراءه مآثر من طيبات لا تُنسى ، فقد كشف عن تلك الحقيقة التى يتجلى فيها شيخ الخفراء بأنه لم يذبح فى حياته دجاجة . وما لبث الخبر أن شاع فى الضيعة وذاع ، فتناقله الأهلون فى دهشة ساخرة ، وشرعوا ينسجون حول هذه الحقيقة حواشى مُوشّاة ، ويصدرونها بضاعة رائجة إلى القرى المجاورة . . . فلم يمض قليل وقت حتى اقتحم الخبر بلدة « كفر الشمارتة » نفسها ، معقل

« الشاويش » الحصين ، وما هى إلا أن فشا فيها كما يفشو الوباء الطارئ ، وبات الخبر مضغة الأفواه فى مجالس السمر ، حتى النسوة كن يتحدثن به على الجداول وهن يملأن الجرار فى الأصائل ، والصِّبْيَة كانوا يتصايحون بهذه النكتة العجيبة فى الغدوات والروحات .

وكان « عاشور » يعلم ذلك كله ، فيرقب الجمع بعين زائغة ، ونفس منقبضة ، ويحس أن قامته الفارعة تتطامن ، وأن شاربه الضخم المسنون قد أخذ يتقاصر وينكمش .

إنه منذ هبط الريف يؤثر العزلة ، ويُقلّ التزاور ، ويتجنب مجالس القوم ، ولكنه الآن وقد شاعت هذه الأحاديث عنه أصبح أشد اعتزالا للناس ، وأكثر نفوراً من اتخاذ الصاحب والخدين .

لقد ارتسم على وجهه التجهم والتخوف والحذر ، وأخلد إلى الصمت معظم الوقت ، بيد أنه لم يفكر لحظة فى أن يتخلى عن عمله الذى أريد عليه ، فقد أضحى يعتقد أن كل امرئ خلق فى هذه الحياة ليؤدى ما تفرضه عليه الأقدار دون مناقشة أو اعتراض .

ويوماً وهو يسوق إلى « الحاج رمضان » أحد العصاة لينفذ فيه عقوبة الضرب ، سمع رب الضيعة يقول له : مالى أراك خائر العزم ، واجف القلب ؟ ما نَفْع هذا الشارب الضخم المسنون ؟ خير لك أن تحلقه .

وثارت عاصفة من التضاحك والاستهزاء بين شهود هذا الموقف ،

فأحس الرجل بالدم يغلى فى رأسه ، فتلفت حواليه فترة يرمى الحاضرين بشواظ عينيه ، وما إن وقع بصره على بصر « الحاج رمضان » حتى انتفض فى وقفته ، وما أسرع أن حنى رأسه يردد ألفاظا مهوشة فى صوت متخلج هزيل .

وأمضى يومه وهذا المشهد العصيب يحاصره ، وقولة « الحاج رمضان » تطن فى سمعه ، ولما أوى إلى داره قصد من فوره إلى ركنه المختار حيث يعلق على الحائط حطام مرآة ، ومثل أمامها ينظر إلى وجهه على ضوء المصباح الأغبر ، فألفى شاربه متضائلا مبعثر الشعرات يعلوه قتام . فحز ذلك فى قلبه ، وأقبل على الشارب يضمخه بالدهون ، ويمعن فى فتله كل الإمعان .

وفى مستأنف الأيام لم يدع « الحاج رمضان » مناسبة إلا انتهزها للاستهزاء بشيخ الخفراء ، فى أسلوب عليه من الملاطفة طلاء . . . وأكثر ما كان يلهب غيظ « عاشور » أن رب الضيعة كان يتخذ لمداعباته الثقيلة الواخزة فرصة ازدحام الدوار بجموع الزراع ، أو امتلاء منظرة الضيوف بمختلف الزوار ، ولكن الرجل لم يكن يملك إلا أن يلوذ بالصمت ، وربما شارك القوم فى التضاحك ، ليخفى ما يضطرم قلبه به من حفيظة وتغيظ .

وكيف لا يصر « الحاج رمضان » رب الضيعة على أن ينال من

« عاشور » على هذا النحو المزرى به ، وهذا « العاشور » قد أخفى عنه حقائق من شخصيته ذات بال ، فلولا قدوم الضيف « عبد العليم » عامل القهوة ، لما عرف رب الضيعة شيئاً من هذه الحقائق المستورة . ولعله قد آلمه أن ينخدع بما يتحلى به هذا « الشاويش » من شارب ضخم مسنون ، وبما له من ماض مديد فى خدمة الأمن ، فوَلاّه مشيخة الخفراء ، حاسباً أن له من شجاعة النفس وصرامة الطبع ما يؤهله لهذا المنصب الخطير .

وتتابعت الأيام على هذا المنوال . . . « الحاج رمضان » يغلو فى السخرية بشيخ خفرائه ، ويندّد به ما وسعه أن يندد ، و « عاشور » يزدرد هذه السخريات على مضض ، فتتراكم فى حنايا نفسه طيات بعضها فوق بعض ، وتثقل وطأتها عليه .

واستبد الشك بالرجل فى كل شىء : فى شخصيته ، وفى البيئة التى تحيط به ، وفى الناس الذين يخالطهم ويخالطونه ، لقد تشابهت عليه الأحداث وتشاكلت ، وامتزجت عنده الحقيقة بالخيال ، وتداخل أمسه فى يومه ، فلم يعد يفرق بين الصور والشخصيات والمعالم ، وأصبح لا يرى إلا أعمالاً ونتائج أعمال ، لا تمييز فيها بين ماض وحاضر . . .

« ما نفْع هذا الشارب الضخم المسنون ، وأنت من الجبن والخور بحيث لا تستطيع ذبح دجاجة ؟ خير لك أن تحلق شاربك ! »

كانت هذه الجملة تصك سمع « عاشور » فى صباح ومساء ، فإن

ملك النوم عينيه راعتَه فى طائف الأحلام ، كأنها الألم الراتب الدائب ينبعث من ضرس نَخر تغلغل فيه السوس ، فجعل ينشر سمومه فى دم صاحبه ، غير مقطوع ولا ممنوع .

وجاء يوم استدعاه فيه « الحاج رمضان » فلبى دعوته ، وقَدِم على منظرة الضيوف وقد غَصتْ بالزوّار ، فوجه إليه رب الضيعة ألواناً من اللوم والتعنيف لتقصير كان منه فى الضبط والربط ، وما كاد « عاشور » يدفع التهمة عن نفسه ، ويتبرأ من تقصيره ، حتى انقضّ عليه اثنان من الخفراء يأخذان بساعديه ، وخطا إليه « الحاج رمضان » رب الضيعة خطواته الهينة الرفيقة ، وعلى فمه ابتسامته ، ويداه معقودتان خلف ظهره ، وقال له فى لهجة رخوة لينة : لقد نصحت لك غير مرة أن تحلق شاربك الذى لا يلائم ما أنت عليه من جبن وخور ، فلم تنتصح . . . فلا حيلة لى إلا أن أريحك منه .

وفى لمح البصر لمع المقص فى يد رب الضيعة ، وسرعان ما اختفى الشارب ، وتجاوبت أرجاء منظرة الضيوف بالنكات والضحكات . . . تم ذلك كله فى خطفة ، والرجل ذاهل عن أمره لا يكاد يعيه ، فقد حَسِب أولَ وهلة أن « الحاج رمضان » لا يبغى إلا الدعابة والمزاح ، ولكنه حين أخلى سبيله ، ومضى فى طريقه ، رفع يده دون وعى يتحسس مكان شاربه ، فلم تصادف أنامله إلا بقايا مبعثرة من ذلك الشارب العتى ،

كأنها جذور أشجار قُلمتْ أفنانها الفارعة . فتملكت الرجل قُشعريرة ، وتلفت حوله ، فألفى الناس يتلاحقون به ويحدّقون إليه فى شمات ، فحث خطاه يبغى أن تواريه الدار عن العيون .

وما إن احتوته داره حتى أحكم إغلاق بابها خلفه ، وَهم أن يتجه إلى ركنه الحبيب ليتطلع إلى وجهه فى المرآة ، ويتبين أثر الكارثة التى حلت به ، ولكنه تثاقل ، فهمّ ثانية أن يفعل ، ولكنه أحس فى أعماق نفسه بحاجز يمنعه أن يتقدم ، فقعد القُرفصاء ، وانسرح يفكر ، ثم قام يلتمس شمعة فيوقدها ذاهباً بها إلى أقصى الفناء ، حيث تقبع هنالك حجرة مهجورة معتمة كأنها جبّ موحش مرهوب ، وكانت هذه الحجرة مَلقى للنفايات والمهملات ، ولم يكن « عاشور » يقربها إلا ليقذف فيها بما لا حاجة به إليه ، وما وطئتها قدماه منذ هبط الضيعة إلا فى الندرة ، إذْ كان يرهبها ولا يرتاب فى أنها مرتع لأشباح الجن والشياطين .

أشعل الرجل شمعته ، واقتحم بها الحجرة فى جرأة نادرة ، ودار بعينيه يتبين ما تحوى ، فإذا هو أمام كُومات من الفُضَالات والأنقاض عليها غاشية من وحشة قاتمة . . . وظل فترة يتفحص أرجاء الجبّ ، ثم تراءت على وجهه ابتسامة بشعة تستمد طابعها من ذلك الوكر الموحش ، ثم غادر الحجرة عائداً إلى الدار ، فتوسطها رافعاً هامته يتحدّى ، وقد برق فى عينيه شُواظ من نار ، ثم جمجم يُقسم وينذر فى عنف واحتداد .

واحتبس فى الدار أسبوعين لم يبرحها ساعة من نهار أو ليل ، فإذا طرق الباب طارق أجابه بأنه مريض ، وما كان المرض ليعرف طريقه إلى جسمان الرجل ، ولا سيما فى هذه الفترة التى يقضيها حبيس الدار ، أسيرَ تفكير عميق ، يدبر خطة نبتت جذورها فى رأسه يوم ذهب المقص بشاربه .

ولم يَقصر الرجل وقته إبّان استخفائه على مجرد التفكير ، ولكنه نشط للعمل ، متخذاً من ذلك الجبّ المهجور مَراحاً ومَغدى ، فأعمل فيه يد التنظيف والترتيب ، كأنما يعدّه ليكون له مأوى .

ورجع « عاشور » ما انقطع من عمله عند « الحاج رمضان » فمارسه على نحو ما كان يفعل من قبل ، ولوحظ عليه تحول ظاهر فى مسلكه وفى خِصاله ، فقد زايلته نزعة الاعتزال ، وانخرط فى زمرة الناس يداعبهم ويتودد إليهم ويساقيهم صفو الأحاديث ، وكان أول ما قام به حين استأنف عمله أن أقبل على ربّ الضيعة خاشعاً يتوب إليه من الذنب ، ويلتمس السبيل إلى مغفرة ، ويؤدى له فروض الطوْع والولاء . وكان فيما بعد إذا داعبه «الحاج رمضان» فأثقل ، وإذا استهزأ به فأزرى ، لم يُبْدِ تأففاً ولا تضجراً مما يسمع ، وإنما يتقبل كل ما يقال له وهو واسع الصدر مِسماح صَفُوح .

فإذا انتهت مهمته فى الضيعة آخر النهار ، هرع إلى ذلك الجبّ

المهجور فى داره ، يواصل فيه جهده ، ويتابع عمله ، وقد قلص جلبابه ، وشمّر كميه ... إنه يزيح من الجبّ أحمالا من التراب المركوم ، وينقل إليه ألواحاً من الخشب وعوارض بين طوال وقصار .

وتمشت الأريحية فى جوانب الرجل ، فأخذ يقيم فى داره الحفلات ، داعياً إليها القريب والبعيد ، عاقداً فيها حلقات الأذكار عن كثب من موائد الطعام ، فإذا فرغ الجمع من ذكر الله ، وتناشدوا الأهازيج الرقاق على نغمات الناى الحنون ، أحدقوا بالموائد يطعمون ويسمرون .

ورطب الناس ألسنتهم بالثناء على « عاشور » يحمدون له هذه المكرُمات ، ويُشيدُون بما طبعه الله عليه من دماثة الخلق وحلاوة الشمائل ، فترنحت أعطاف الرجل اغتباطاً بحسن الأحدوثة ، ولكنه وضع نُصب عينيه أن سعادته لا تكتمل حتى يزوره « الحاج رمضان » فى داره ، فيشارك فى حلقة الذكر ، ويصيب مما يعدّه له من طعام .

ولانت أخيراً عنجهية ربّ الضيعة ، فقبِل الدعوة بعد لجاجة وإلحاف ، وبدأت الحفلة مزدهرة متألقة يؤمّها حشد مختار من عِلية القوم احتواهم فِناء الدار ، ومُدت أسمطة الطعام على حُصر مخططة ذات ألوان ، وحُجبتْ سماء الفناء بخيمة تزهو بما وُشيتْ به من زخارف ، وما كتب فيها من آيات قرآنية بيّنات ، على حين تدلّت منها مصابيح متوهجة الأنوار تخطف الأبصار .

ولقى « الحاج رمضان » حفاوةَ الحشد كله ، وشخصت إليه الأنظار من كل صَوب ، وكان أشدّ الناس احتفاء به صاحب الدعوة ، إذ هيأ لضيفه العظيم مكان الصدر ، وأعد له فيه تكرِمةً وثيرة الحشايا ليطمئن عليها فى مجلسه ، وكانت هذه التكرمة على هيئة عرش مَهيب تلتفّ به النمارق والوسائد .

أما حلقة الذكر فقد أريد لها هذه المرة أن تُعقد قُبالة الدار فى عرض الطريق ، فأحاطت بها جموع غفيرة من الصبية والغلمان فى صياح ومراح . وبعد حين انتظمت الحلقة ، وانبعثت الأهازيج من الحناجر ، وأخذ الناس يترنحون ويطوّحون برءوسهم ذات اليمين وذات الشمال ، وتتعالى همهماتهم بتمجيد الله ، فتدنيهم من غيبوبة علوية صوفية محبّبة ، وفى حَمية هذا الانسجام الشامل اقترب « عاشور » من « الحاج رمضان » جاثياً على ركبتيه ، مطأطئاً يقبل يد الضيف العزيز ، قائلا له : لقد رفعتَ من قدرى بين الناس بحضورك هذا الحفل ، أعلى الله مقامك ، وأنزلك عنده خير المنازل .

ورفع عينيه مستعطفاً يقول : هلا أكملت فضلك علىّ فأكرمتنى بجولة عاجلة فى دارى المتواضعة ، حتى تحل عليها البركة ويعمّ فيها الخير ؟

فغمغم « الحاج رمضان » وقد هزته الحفاوة وأسكره المديح :

حبُا وكرامة يا « عاشور » . . . لا أخيّب لك رجاءك .

وما عتم أن نهض ، فطاف به مُضيفه فى حجرات الدار ، وما إن أوشك على نهاية المطاف حتى دنا منه يهمس له :

لم يبق يا مولاى إلا ركن العبادة الذى أستأثر به لنفسى . . .

— أى ركن يا « عاشور » ؟

— إنه شبه زاوية صغيرة أتخذها لصلاتى ونُسكى فى أقصى الفناء .

— شىء عظيم . . .

وسايره إلى ذلك الجبّ المهجور ، فما إن قاربا الباب حتى تقدم منه « عاشور » يفتحه ، وفى لحظة ابتلعهما الجبّ ، وارتد خلفهما الباب . . .

وبغتة علت صيحة خنقت أصداءها جلبةُ الذكر الجهير ، فلم يسمع بها أحد . . . وكانت هذه هى الصيحة الوحيدة التى استطاعت أن تُفلت من شقوق الباب .

وأطبقت على الجبّ غاشية من صمت موحش كئيب .

وبعد قليل انفرج الباب ، فخرج منه « عاشور » يَسطع على محيَّاه زهو الانتصار . . .

وَحسر لبدته شيئاً عن رأسه ، ومر بسبابته مسرعاً على جبهته ، فتناثر العرق فى الفضاء . . .

واتخذ الرجل سبيله إلى حجرته فى صميم الدار ، واتجه إلى ركنه الحبيب حيث يقوم على الحائط حطام المرآة ، ولم يكن قد عَدَلَ إلى

هذا الركن منذ أودى المقص بشاربه ، فجعل يتصفح وجهه فى المرآة منتفخاً يعلو صدرُه . . .

لقد نبت « للشاويش عاشور » شارب عجيب لا عهد له به . . . إنه شارب ضخم يطول يَمنة ويَسرة حتى يبلغ جانبى الحجرة ، وإن طرفيه المسنونين ليتساميان حتى يبلغ كلاهما السقف . . .

وأخذ الرجل يطلق الضحكات مجلجلة ، وهو يمعن فى فتل الشارب العظيم ، على حين أخذ الهواء يعابث باب الجبّ فى أقصى فِناء الدار ، حتى فتحه على مصراعيه . . . فبدا على الأثر مشهد يبعث الروع :

مشنقة كاملة العدّة ، أقيمت فى وسط الجبّ ، يترجح عليها جُثمان « الحاج رمضان » !

الحَمْراء

عرفتُ « الحمراء » منذ عشرين عاماً أو يزيد . . .

عرفتها يوم حللتُ قرية « فلوزيل » السويسرية فى حِضن الجبل ، أبتغى الشفاء فى مصحّاتها من مرض صدرىّ كاد يودى بى .

وهذه « الحمراء » امرأة فرنسية المنبت ، إلى القِصَر أميل ، وإلى الامتلاء أقرب . . . ولا يبرح خلدى حتى اليوم شبحها فى لبسة السواد لا تكاد تستبدل بها سواها ، وهى تغدو ناشطة فى متجرها وتروح ، وقد تَوَّج رأسها شعر يتوهج فى صبغته الحمراء ، وانبعثت من عينيها الضيقتين نظرات تطلع وفضول ، وعلى وجهها المطهّم العريض يتجلى إشراق . . .

ما تكاد تلمح قادماً على المتجر ، حتى تقبل عليه ، وقد ملأت يديها ببعض ما لديها من طرائف السلع ، وانطلق لسانها فى حديث يأخذ بعضه برقاب بعض ، ترصّعه بابتسامات عذاب ، وضحكات رقاق ، وفنون من الإشارة والإيماء تثير البهجة والائتناس .

وهيهات لك أن تَرِيم متجرها إلا وقد تأبطت رِزمة لم يكن يخطر ببالك

أن تبتاع مما حوت شيئاً ، ولا تلبث بعد أن تغادر المتجر وقد ذهب عنك سحره أن تستفيق دهشاً تسائل نفسك : كيف جاز عليك أن تنفق ما أنفقت فى شراء هذه الأخلاط من قطع الحلوى وصناديق البخت والأقلام الملونة وما إليها من لعب الصغار ؟

ولعلك تترصّد لأول طارئ عليك من الأطفال ، لتتخفف مما تحمل . . . فتلقى به إليه فى سخاوة وارتياح !

على أنك مع هذا ربما بقيت على شوق إلى غدك ، وإذا أنت منساق إلى المتجر تصافح « الحمراء » ، وتستمع إلى حديثها الفياض ، ولا تنصرف عنها إلا متأبطاً رزمتك من توافه الأشياء .

أضافتنى قرية « فلوزيل » قُرابة عام ، كنت خلاله أختلف إلى متجر « الحمراء » حيناً بعد حين . . .

وفَصَلت عن القرية عائداً إلى الوطن ، أحمد لها ما أفاءت علىّ من عافية . . .

وكلما قصدت إلى « سويسرة » على تعاقب الأصياف ، جعلت من همّى أن أصعد إلى تلك القرية الجبلية أحيى فيها بعض الذكريات ، وأزور بعض الأصدقاء ، وفى طليعتهم صاحبتنا « الحمراء » !

فى متجرها الرشيق أجلس ساعة ، وهى من حولى تطوف ولا تفتأ تطوف ، كأنها النحلة الخفاقة : ضحكاتها تجلجل ، وروحها يشيع

المراح . . . وأنا فى جلستى أتصفح مرائىَ ذلك العام الهادئ الوادع الذى قضيته فى هذه القرية مستشفياً أنشد لصدرى النقاء والصفاء !

كانت حياتى فى ذلك العام ساكنة رخيّة ، ليس فيها من مظاهر الحركة والنشاط إلا متجر « الحمراء » ، وكان بيت القصيد فيه طفلا لا يعدو الخمس ، أزرق العين ، رنان الصوت ، لا يدلف إلى المتجر ويجول فيه ، حتى يمرق منه إلى الطريق فى جلبة وضجيج ، وهو يقفز بعجلته الخشبية على أديم الأرض ، فتنبعث لها قعقعة موصولة . . . و « الحمراء » تُتْبِعه نظرة حنان ، ولا تعتم أن تميل علىّ قائلة : معذرة يا سيدى . . . إنه كثير الصخب ، ولكنه طيب القلب . . . كأبيه !

وما هى إلا أن تتنهد ، وتستأنف القول محزونة النبرات : كلما سمعت صوته الحاد ، وشهدت عينه الزرقاء ، ذكرت الراحل . . . أباه !

وتهيم بنظراتها فى الفضاء ، كأنها ترتاد مجاهل الآفاق . . . ولكن سرعان ما تنجاب عن محيّاها سحابة الاكتئاب ، وتعاودها نشطتها المرحة ، فتقبل على السلع تعرضها فى حديث طلق أخاذ .

هجرتْ « الحمراء » موطنها الفرنسىّ ، طوعاً لحاجة زوجها إلى الاستشفاء فى قرية « فلوزيل » ، وهى يومئذ ذات حمل . . . وشدّما عانت من مشقات ومصاعب فى بادئ الأمر ، فإن عبء الإنفاق كان على كتفيها كله . . . ولم تجد بدًّا من أن تتجر ، فأنشأت ذلك الحانوت

برأس مال هو صفوة ما ادخرت هى وزوجها فيما سلف .

ووضعت « الحمراء » طفلها ، ولم يكن ليثبط عزيمتها فى العمل ، بل لقد زادها إقبالا وهمة . . . وكيف تتوانى فى السعى ، وقد وكلت الأقدار إليها رعاية عزيزين : زوج يُشْفَى على الهلاك ، وطفل جاءها بعد طول انتظار .

وربحت تجارة « الحمراء » . . .

وكان موت الزوج بعد ذلك قميناً أن يفتّ فى عضدها ، ويقوّض صرح تجارتها ، ويردها إلى موطنها الفرنسىّ . . . ولكن نظرات هذا الطفل الأزرق العينين ، وابتساماته البهيجة الوضيئة ، كانت تقتضيها أن تدأب فى السعى ، وتواصل الكفاح ، ولا تبرح قرية الاستشفاء ، تأميناً لصحة الرضيع ، خشية أن يعدو عليه داء أبيه . . . وكذلك استجابت المرأة لهذا النداء ، فاستقرت فى القرية تعمل ، وأقبلت على طفلها تكفُله ، فشبّ سليم الجسم ، مُبَرَّأً من الأوصاب !

واطمأنت « الحمراء » بهذه الحياة التى أسبغت على الطفل نماء وعافية ، ورضيتْ عن هذا المتجر الذى يدرّ عليها الرزق الطيب والكسب الموفور ، فلم يدر ببالها أن تبارح هذه القرية ، بل لقد قرّ فى وليجة نفسها أن نجاة هذا الطفل مرهونة بالبقاء فيها ، فاتخذت منها وطناً .

وعاشت « الحمراء » لطفلها . . . كان هو محور آمالها فى الحياة ،

تلمح فيه رجل المستقبل فى البيت والمتجر ، وتؤمل منه أن يكون لها فى الشيخوخة عوضاً عن أبيه : يحمل عنها ثقل العيش ، وبه تستند إلى خير معوان .

وكنت كلما توخيت الحانوت ، فى زوراتى للقرية ، أشهد الطفل يزكو ويترعرع ، حتى شبّ شبابه ، بيد أن سماته وشمائله لم تكن تفارقها تلك الطفولة العابثة اللاهية . . . فهو يقتحم المتجر وينصرف عنه فى هرْج ومرْج ، وهو أبداً صيّاح ضحوك ، وهو ممراح لا يبالى ما يفعل ، ولا ينحاش عن شىء .

وقد مارس الرياضة فشغفته حباً ، وما زال يتفنن فيها حتى ظفر فى القرية بأسنى جوائز الانزلاق ، وأصبح بطله فيها غير منازَع .

ولا أنسى كيف كان يصافحنى إذا بسطت له يدى ، فقد كان يعصِر كفى بقوة ، كأنما يريد أن يشعرنى بمبلغ فتوته وشدته... وأمه قُبالته تتوسمه بعين فيها وميض الزهو والاعتزاز . ولا تلبث أن تفيض فى التغنى بمزاياه الرياضية ، والإشادة بشجاعته وإقدامه ، فيقطع حديثها بالضحك يملأ شدقيه ، ويبعث صلصلته عالية الرنين ، ثم يشير إلىّ بسبابته قائلا فى توكيد : لا تصدق يا سيدى . . . إن هذه السيدة تغلو فى حبها لابنها ، فلا تدرى ما تقول !

ويَميل على أمه ، آخذاً بكتفيها ، وهو يقول : يالله ... شدّما أنت

رائعة الجمال فى هذا الشعر الأحمر القانى ! . . . . شدّما أنت أنيقة فى هذا الثوب الأسود اللمّاح !

ويختطف من خدها قبلة صاخبة ، ثم يسلم قدميه للطريق فى خفة ونزق . . .

تواردت الأعوام على الفتى حتى أينع ، وآن للرجولة أن تستقبله ، وهو على حاله ليس له من هم إلا تزجية الوقت وتلهية النفس وممارسة الرياضات ، فإذا سئلتْ أمه :

لأى غد أعدّت ولدها ؟ وأى مصير ينتهى إليه ؟

أجابت فى طمأنينة وأمان : لقد تعلم ما فيه الكفاية . . . وإن لم ينل إجازة ! . . . حَسْبُه ميراث الذكاء من أبيه ... وإنه لقائم فى غد مقام أبيه . . . لسوف يحمل عنى عبء البيت والمتجر معاً . . . دعه فى مراح الطفولة بعض وقت . . . وما زالت فىّ بقية !

كذلك كان يحيا فى تلك القرية فتى « الحمراء » . . .

وهبت ريح الحرب العالمية الثانية ، فألزمتنى مقامى فى « مصر » سبع سنين ، فلما صحا الجو ، وتمهّد الطريق ، أزمعت الارتحال إلى « سويسرة » على لهفة وشوق . . . وصعدت من فورى إلى الجبل ، ألتمس زيارة « الحمراء » فى قرية « فلوزيل » . . .

وإذْ أبلغنى القطار باب المحطة ، نزلتُ إلى ظلة الصحف أجاذب

صاحبها الحديث فى بعض شئون القرية وأهليها ، وكان لى به سابق عهد ، فعرفت منه أن الحياة ثمة كما هى ، وأن صاحبة الحانوت على حالها فى الحانوت ، ولكن كارثة نزلت بها منذ أشهر قلال . . .

— ماذا ألم بها ؟

— قضى ابنها . . .

فصحتُ مأخوذاً : كيف ؟

— أودى به حادث انزلاق فى مباريات الشتاء المنصرم .

وأدبرتُ عن الرجل تخطو بى قدمى فى القرية خطوات قلقة ، وإذا أنا تتراءى لى غمامة دكناء تسبل سترها على الأفق المشمس ، فتطمس نوره ، وتغيض بهجته ، وتضفى عليه الجهامة والعبوس .

وكاد يردنى عن المضىّ هاجس مر بنفسى . . . إنى لم أقصد هذه القرية إلا لزيارة « الحمراء » ، وهى اليوم فى شغل بمصابها عن سائر الناس . . . فيم زيارتى إياها ؟ ماذا أنا قائل لها ؟ ما أزهدنى فى تلك الجلسة الكئيبة التى تضمنى وإياها حين أقبل عليها الساعة !

ورجعت إلى المحطة ، أستدرك القطار فى أوبته ، وهناك فى حجرة الانتظار ظللت أذرع أرضها ، والأفكار تهيم بى فى كلّ واد .

يا للقدر فيما يدبر من غرائب وعجائب ! . . . هذه أم لم تكن تعيش إلا من أجل ولدها ، أحسنت القيام عليه ، والتعهد له ، حتى غدا كالفحل :

صُلب العود ، متين القوى ، لا يشكو بأساً ، ولا تتخوّنه علة ؛ وفى لحظة نكراء ترى نفسها قد فقدته آخر الأبد . . . تلك امرأة عانت فى سبيل ولدها ما عانت ، إذ هجرت وطنها الفرنسىّ ، ورضيت بالبقاء فى جوار المرضى وأنصاف الموتى من نزلاء هذه القرية ، زادُها كله فى هذه الحياة بسمة ولدها حين يبتسم ، وبهجته حين يبتهج ، وضجته حين يغدو ويروح . . . فإذا هى صفر اليدين منه ، تفقد بفقدانه ما كان لها من زاد الحياة ! أنّى لها أن تعيش بعده ؟ وكيف يطيب لها المقام فى بلد شهدت فيه مصرع حبيبيها الغاليين : زوجها من قبل ، وولدها من بعد ؟

وألفيتُ قدمىّ تزُجّان بى ، فوجدتنى أنتحى متجر « الحمراء » . . . ودخلت الحانوت وئيد الخطا ، فتلقتنى سيدته تصافحنى فى مودة ، وهى تقول : طال مغيبك يا سيدى !

— هى الحرب . . . لم تدع لنا من سبيل .

— الحرب . . . ما أقساها ! . . . عشنا فى حَرّها زمناً ، وإن لم تمسسنا نارها . . .

وطفقت المرأة تتحدث إلىّ ، فيما كابدته البلاد السويسرية أثناء تلك الحرب الشعواء .

وكانت « الحمراء » فيما تبدو لعين الرائى كما هى لم يطرأ عليها كبير

تغير . . . شعرها ما برح فى صبغته الأرجوانية يتوهج ، وإن توضحت فيه بعض شعرات علاهنّ المشيب ، ولَبوسُها الأسود كما عهدتها به ، وإن فارقه شيء من أناقته . . . وهذا الوجه المطهَّم العريض هو وجهها ، وإن عرفتْ سبيلها إلى صفحته الغضون . وحديثها ما برح محتفظاً بلهجته ونبرته ، وإن سَرَى فى صوتها كدّ وإعياء .

وقامت على مألوف عادتها ترينى ألواناً من سلع المتجر . . . فراعنى أنى لا أرى إلا حُثالات عفراء تقادمت عليها الأيام . وما كادت تقترب منى ، وبين يديها السلع ، حتى تعثرت ، وأوشكت أن تتهاوى . فعجلتُ إليها أقيلها من عِثارها ، فلم تكد تحس يدى ، وأنا آخذ بساعدها ، حتى أمسكتْ بها تشدّ عليها ، وفجأة أطرقت تغطى وجهها بيمينها ، وانطلقت تنتحب ، ويعلو لها نشيج .

ووجدتنى معقول اللسان ، لا أملك أن أنبس ... وكل ما كان منى أنى أقبلت عليها أربّت كتفها ، كما ألاطف طفلا جريح النفس ، مَهِيض الجناح !

وأجلستها على كرسىّ ، وأخذت مكانى منها على مقربة ، ولما ذهب عنها الروع ، وخف النشيج ، قالت مهمهمة ، ويدها تمسح بقايا الدمع فى مآقيها : معذرة يا سيدى . . . لعلك لا تعلم أنى فقدت . . .

فعاجلتها بقولى : علمت كل شيء . . . تشجعى يا سيدتى ، وثقى برحمة الله !

— نعم . . . نعم . . .

وأمسكتْ عن الكلام هنيهة ، ثم جعلت تسوِّى من شعرها ما تشعث ، وتعالج أن تظهر فى بشاشة وتطلق ، وعادت إلى سلعها تُميط عنها الغبار ، وتَرْجع إليها ما لها من بهاء . واستطردت تتحدث إلىّ شكولا من الأحاديث ، وهى تتكلف عبثاً أن تكون كما كانت من قبل : لبقة الحديث ، مأنوسة الدعابة ، موفورة التسلية !

وما هى إلا فترة حتى أحسست بأنى أسارع إلى إنقاذ الموقف ، فأسترسل فى الكلام ، محاولا ما وسعنى أن أحاول التلطف فى الحديث ، طلباً للترفيه والإيناس . وفى أثناء التحدث ، كانت « الحمراء » تطلق بعض ضحكات خِفاف ، أذكرتنى ملامح من ذلك الماضى الغابر ، ماضيها حين كانت خِلواً من الهم ، ذات قلب طروب !

وأطبقت يدى على يد « الحمراء » أهزها مودعا فى تحنن وإشفاق ، وتركت الحانوت حاملا ما اشتريته من السلع التوافه ، وأنا أحث إلى محطة القطار ساقىّ .

. . . عامان مضيا . . . لم أقصد فيهما « سويسرة » ، وفى صيف عامى الثالث أقبلتُ عليها إقبال مَشُوق ، فكان أول شىء انبعثت له نفسى هو الإلمام « بالحمراء » فى معقلها الأشمّ . . . .

فلما أسلمنى القطار إلى ظلة الصحف ، ابتدرت صاحبها أسائله :

ما مبلغ علمك « بالحمراء » ؟

وكأنما كنت أخشى أن أسمع منه ما يسوء ، وكأنه قرأ فى وجهى ما كنت أخشى ، فبدت على محيّاه ابتسامة فيها تخابث ، وهو يجيب :

لا تخش على صديقتك بأساً ... ما زالت حيةً تسعى ! ... إنها ماكثة فى القرية ، حتى تشيّع أهلها جميعاً إلى الأجداث !

وعدلتُ عن الظلة ، يتبعنى منه رنين ضحك بغيض . . .

وتوجهت من فورى إلى الحانوت ، فصادفته مغلقاً ، وأسعفتنى الذاكرة بأن اليوم يوم « الأحد » ، فيممت نحو كوخها ، فى أطراف القرية ، وضغطت زرّ الجرس ، فلم يخطئ سمعى خفق قدميها وهى قادمة تفتح الباب ، وفوجئتْ بى ، فصاحت تحيينى متهللة ، وشدّت على يدى تقول : ما أوفاك من صديق . . . أنت لا تنسى عهد الصحبة ، وإن تباعدت الأيام !

فقلت ، وأنا أرنو إليها أتفحص : وهل ينسى المرء صديقة مثلك ؟

ورافقتنى إلى مجلس الدار ، وقربتْ لى مقعداً فيه ، ثم قدمت إلىّ كوباً من عصير الفاكهة ، وأخذت مكانها عن كثَب منى ، تسبغ علىّ من شئون القرية وأنباء أهليها فى لهجة أنيسة محببة .

راعنى من « الحمراء » أنى وجدتها تستعيد مظهرها القديم : من بشاشة فى الوجه ، وتأنق فى الزى ، وتوهج فى شعرها الأرجوانىّ . . . ولولا

ما تعقد على صفحة وجهها المطهَّم من غضون، وما أدرك قَوامها الممتلئ من ترهل ، لما أنكر أحد شيئاً من « حمراء » الزمن الخالى !

وأبحت لعينى أن تجول فى أرجاء المجلس ، فطالعتنى صور تتباين أوضاعها وعهودها لعميدى الأسرة : الأب وفتاه ! . . . وإن بعض هذه الصور ليتجلى ملوّناً زاهياً فى إطارات رفيعة هى أثمن ما فى المكان من متاع .

ونهضت « الحمراء » تقول :

هذا يوم الزورة الأسبوعية للمقبرة . . . أتكون معى ؟

— إذا راقك أن أكون !

— لن يذهب وقتك عبثاً . . . فهنالك لا ريب أصدقاء لك سيشعرون حتما بأنك سعيت إليهم تزور . . .

فأثار قولها شجنى ، وقلت : كيف ؟

فحدقت إلىّ تقول : ألست معتقداً أن الأرواح تحوم هنالك لتتعرف وجوه الزائرين ؟

فغمغمت أجيب : مهما يكن من أمر ، فإنى مصاحبك فى زيارتك ، وإنه ليطيب لى أن أزور القبور ، أحسّ ساكنوها بى أو لم يحسوا . . .

فصلبتْ عودها ، وأحدّت نظرها فىّ تقول : كن على يقين أنهم

يحسون بنا ، وأنهم يرونا ، ولكن لهم طابعاً خاصاً فى الرؤية والإحساس . . طابعاً يلائم طبيعة تلك الأرواح .

وكانت منها سكتة وإطراق ، ثم علت برأسها شاردة النظر ، تواصل قولها : لم يخب ظنى فى كل مرة زرت فيها قبر العزيزين . . . لقد استشعرتُ وجودهما من حولى ، وإنى من ذلك على ثقة ويقين ، ولو أوتيتُ موهبة القدّيسين الأطهار لتم بينى وبينهما لقاء ، ولدار بينى وبينهما حديث !

وما آوشكنا أن نبارح الكوخ ، حتى رأيت « الحمراء » تتوخى جانب المرآة ، فتقف قبالتها تسوى شعرها ، وتصلح هندامها ، ولم تنس أن تختم زينتها بنفحة من عطر وادع رقيق . . . وقالت وهى تدلف كالكرة خارجة : كان ولدى كثيراً ما يقول لى : « شدّما أنت رائعة فى هذا الشعر الأحمر القانى . . . شدما أنت أنيقة فى هذا الثوب الأسود اللمّاح ! . . . »

وابتسمت مستأنفة قولها : ألا تجدنى فى مظهرى هذا جديرة بلقائه ؟ . . .

فلاطفت كتفها وأنا أجيبها :

ما كنت فى مظهرك يوماً محتاجة إلى مزيد من عناية واحتفال !

وخرجنا إلى الطريق ننحدر منه إلى مسلك خطته الأقدام فى المرْج الفيّاح . . . مسلك قصير المدى ، يكاد يخلو من السابلة .

وكانت « الحمراء » تسايرنى وهى تصعّد فى الطريق ، متساوقة

الخطا ، ضاربة بعصاها أديم الأرض . . .

وانبعثت تحدثنى عن ولدها فى استفاضة وانتفاضة . . . إنها لتصفه لى ، وإنها لتقص علىّ من أخباره التافه والطريف ، كأنى لم أره ، وكأنى لم أعرف من أمره أى شىء . . . . . ظلت تسرد علىّ أحداث صباه ، وأطوار شبابه ، دون ترتيب ولا تنسيق ، غير متحرّزة من التكرار والاستطراد . . . .

ومما كانت تؤكده فى وصف فتاها الراحل قولها : ما كان أجمله من فتى أزرق العينين . . . كأبيه . . . يتوقد ذكاء وألمعية . . . كأبيه !

وكذلك كانت تردد قولها : ما كان أشد فتوته وقوته . . . لو أراد اقتلاع شجرة من جذورها لما خانته يده . . . كأبيه !

وشارفنا ساحة المقابر ، فلمحتها على ربوة مزدهرة حالية بالريحان ، يدور حولها سياج ساذج من فروع الشجر .

وأقبلنا داخلين ، فراعنى أن صفائح القبور تختلط بالشجيرات والأزاهير ، فكأنها مزاج من نبت الطبيعة على ظهر الأرض . . .

وأدنتنى « الحمراء » من قبر على ذروته لوحان ، وألفيتها قد اتخذت منه قِبلةً ركعت تُجاهها فى تخشع لحظات ، ثم جلسنا معا على صُفَّة أمام الضريح ، نستغرق فى تيار الأحلام . . .

وبقينا حيناً فى هذا الصمت العميق ، كلانا يستثير ما فى ماضيه

من ذكريات غالية ، ويستعيد ما له من أطياف عزيزة بعيدة ، ويستدنى من عالم الغيب تلك الأرواح الكريمة عليه ، يبثها صفو المناجاة .

ثم نهضنا . . . أنا و « الحمراء » . . . نهضنا خفيفين نشيطين ، يسرى فى أوصالنا مرح نفسىّ ، ويهزنا طرب رُوحانى ، وقد تمثلت لنا الدنيا من حولنا باعثةً كلها على طمأنينة ورضا .

ورجعنا أدراجنا ، يسيل بنا المَرْج الفياح إلى الكوخ ، وكل منا خال إلى نصيبه من روعة تلك الزورة ، يستمتع به فى صمت وهدوء . . .

ولما انتهى بنا السير إلى باب الكوخ ، أخذت بيد « الحمراء » أشدّ عليها مودّعاً ، وأنا أقول : أشكر لك من أعماق قلبى حفاوتك بى ، وما يسّرت لى من متعة طيبة . . . لقد أتحت لى أن أنتقل إلى عالم حبيب إلى نفسى ! . . . سأراك فى الصيف المقبل ، لو قُدّر لى أن أعود !

— إن كتب لى عمر ، فستجدنى هنا . . . هنا على الدوام . . . هنا فى هذه القرية العزيزة !

وقطعتُ الطريق إلى محطة القطار ، تسوقنى ألوان من التأملات . . .

حين قدمتُ هذه القرية منذ قليل كنت أعجب من أمر « الحمراء » : كيف لا تبرحها ، ولم يبق لها فى أرجائها من شىء ؟ !

والآن وأنا أغادر القرية أحدث نفسى : كيف تستطيع « الحمراء » أن تبارح قريتها ، ولها فيها كل شىء ؟ !

الدّيك

– امش يا كلب . . .

نطق الرجل بهذه الجملة ، وهو يعبر الطريق ، حين ضرب بقدمه يركل هَنَاة آدمية ، أو قل : مِزْقة بشرية ، أعنى حُطام صَبِىّ . . .

لقد ركل الرجل هذه الهناة إذ أحس بها تمس ساقه ، تنشد أن تسترعى إليها نظره ، لكى تظفر منه بصَدَقة .

واستقبلت المزْقة هذه الركلة ، عوضاً عما أملتْ من معروف . وما لبثت أن تراجعت زاحفة على الطَّوار تجرّر ساقيها العجفاوين اللتين أعجزهما الشلل ، وهى تحاول فى زحفها على أديم الأرض أن تحمى نفسها من أقدام السالكين ، متخذة لها ملاذاً من ركن صغير فى جدار إحدى الشواهق .

اخرس يا كلب . . .

ابعد يا كلب . . .

امش يا كلب . . .

تلك هى العبارات البيانية المختلفة ، التى كانت تتمثل فيها بلاغة

الناس ، يجيبون بها تلك المزقة البشرية ، كلما همت أن تدنو من مواطئ أقدامهم على مَدْرَجة الطريق .

ولم تكن المزْقة البشرية تستبطن لهذه الجمل من مغزى ، أو تستكنه لها من مدلول . على الرغم من أنها أَلِفَتْ سماعها مرات تفوت الإحصاء ... كل ما كانت تدركه من معناها أنها أمرٌ إليها بالتنحى ، وتحذير لها من الاقتراب .

ما للمِزْقة وللكلب تقرَنُ معه ، وتوصف به ؟ إنها لتعرف أن البون جدّ شاسع بينها وبين ذلك الحيوان الذى يتخذ القوم اسمه نعتاً من نعوت المسبة والتحقير والإصغار .

الكلب ! . . . من أين لتلك الهناة منزلة الكلاب ، على اختلاف حظوظها فى مضطرَب الحياة ، وفى مجتمع البشر ؟

الكلب ! . . . إنه فى أبخس حظوظه ، وأهون منازله ، حيوان ضال تتقاذفه الأزقة والدروب ، تراه عادياً يتلفت فى ذعر ، وذيله مستخْفٍ بين فخذيه . وإنه فى هذه المنزلة الهيّنة ، وذلك الحظ البخس ، لأرفع من تلك المزْقة البشرية شأناً ، وأهنأ حالا .

للكلب قوائم أربع يفر بها من طالبه ، فينجو بها من الأذى ، ويسلم من الشر . وله فروة تقيه مضرة الأجواء حين يشتو وحين يصيف . وقد أوتى من القدرة والقوة ما يستطيع به الصراع فى سبيل العيش .

وهذه الطبيعة أتاحت له أن يحصل على القوت فى شىء من اليسر .

فأما المزْقة البشرية ، فماذا لها من حول وطول ؟ وماذا لها من وسيلة وحيلة ؟ هاتان ساقان مشلولتان ، كأنهما بعض جثة هامدة تتشبث بالجسد الحىّ فتكون عبئاً عليه . وتلك أسمال مهلهلة لا تُظل فى صيف ولا تدفئ فى شتاء ، بل إنها لتكاد تكشف عن سوأة تنبو عنها العيون . وليس لتلك المزْقة البشرية من علائم الحيوية ، ودلائل القوة ، إلا أنفاس تتردد فى ذلك القفص الهش الذى يَعيث فيه سوس الداء . . .

امش يا كلب .

ابعد يا كلب .

اخرس يا كلب .

كانت هذه الجمل تتناثر من أفواه المارة جملة بعد جملة ، فتتجمع ثقيلة الوطأة على سمع المزْقة البشرية الزاحفة ، فلا تلبث أن تحملها إلى قاعدتها فى أسفل الجدار العالى ، لتستقر هنالك ريثما تلوح لها فرصة القيام بزحف جديد .

هذا الركن يحتويها منذ عام أو فوق عام ، وهو محلها المختار الذى يكفُل لها الطمأنينة والأمن ، إنه شبه فجوة تتجافى عن الأنظار ، وإنه لقريب من الطريق الحىّ العامر بالصادرين والوُرَّاد فى ليل ونهار ، وإنه ليكفيها مئونة السعى فى استجداء القوت وطلب الرزق من هنا وهناك .

والمِزْقة البشرية فى مستقرها العتيد ، على مقربة من مطعم أنيق على الطريقة الأمريكية ، فيه يلتهم الرُّوَّاد طعامهم وهم وقوف متعجلون ، وهو منذ الصباح إلى منتصف الليل سوق حافلة بالناس . . . لم يكن هذا المطعم وقفاً على من يحمل الدرهم والدينار ، وإنما كان فيه متسع لمن يحملون بدلا من الدينار والدرهم مزايا نفسية ، ومواهب شخصية ، أولئك هم الذين يحسنون التلقط للفائت والمهمل ، ولا تعاف أنفسهم البقايا والفُضالات ، فإن أفلت من هؤلاء العفاة شىء ، تلقفته فئة أخرى من ذوات الأربع السارية تتشمم الأرجاء والأنحاء ، فلا تُبْقِى فى أرض المطعم على فتات لكانس .

وما أقل نصيب المزْقة البشرية من هذه الوليمة الدائمة الموصولة على طول الترقب . . . وكيف لها أن يتوافر نصيبها فى مزدحم يزخر بالخاطف واللاقف والمتلقط من إنسان وحيوان ؟ إنها لتقنَع من الغنيمة بما زهدَت فيه الأيدى ، وما عفت عنه الأنوف . . . وما كانت قناعتها عن رضاً وطواعية ، ولكن لابد مما ليس منه بدّ .

ولطالما قبعت تلك المزْقة البشرية فى شِقّها الأمين تتأمل ما يحيط بها من مظاهر الحياة ، فإذا هى تسبح فى تيار من الأخيلة والأحلام .

عظيم ما تقع عليه عينها من شئون وأشياء ، وهو منها قريب التناول جدّ قريب . بل إنها هى جزء من محيطه ، ولكن أين هى من تلك

الأشياء والشئون التى تراها رأى العين ، وتصبح فيها وتمسى يوماً بعد يوم ؟

إن المزْقة لتحس بأن بينها وبين الحياة المحدقة بها حجازاً من زجاج يَشِف ولا يُنِيل . فإن هى خُدعت لحظة بشفوفه ، فأرادت أن تنفُذ منه ، صَدّتها العوائق والأسداد ، وردتها إلى مستقرها الخالد ، وكشفت لها عن حقيقة خاصة بها لا خُدْعة فيها ولا غفلة ، تلك هى أن كل ما يتراءى لها من مشاهد الحياة عن كثَب منها ليس إلا أوهاماً وخيالات وأساطير .

ترَسَّبتْ هذه الفكرة فى أعماق المزْقة البشرية ، واختلطت بنسيجها المهلهل ، فلم تعد نفسها تسوّل لها أن تطمع فى شىء من ذلك المتاع الذى يتجلى للعيون على مسرح الحياة . وعلى مر الأيام ران عليها صدأ ذلك الاستسلام ، فانتهى بها إلى تبلد وجمود .

هذه الحياة العجيبة التى تتوالى أطيافها فى الطريق ، وخلف النوافذ . . . هذا اللون البهيج من الترف والرفاهة فى مأكل ومشرب وملبس . . . تلك الأضواء الألاقة والأوضاع الرائعة . . . ذلك الإشراق الذى يفيض على مختلف الأشياء من حىّ وجامد . . . كل ذلك تتملاه المزْقة البشرية ، وهو يتعاقب حيالها تعاقب الصور السينمائية حيال الأنظار . . . هو لعينها متعة ، أو قل : هو لنفسها حسرة ، فما شىء منه تناله تلك المزْقة إلا وهماً .

من بين هذه الصور السينمائية على اختلاف ألوانها مشهد له فى نفس المزقة البشرية أسمى منزلة وأعز مكان . . . إنه مشهد يتكرر عرضه أمامها كل يوم ، بل كل ساعة ، فلا تمل تَرْداد النظر إليه ، والاستمتاع بمرآه . ذلك هو المطعم الذى يتجلى على مقربة . وإن اهتمامها ليتجمع فى ركن من أركان هذا المطعم ، تتربع فيه خزانة بيضاء ناصع لونها ، تبدو تحت الأنوار الألاقة كأنها سبيكة من فضة . . .

تنطوى هذه الخزانة على أعظم كنوز الدنيا فى حِسْبان هذه المزقة ، أما هى فى حقيقتها فليست إلا مستودعاً لحفظ المأكولات ، أو سمها باسمها الشائع : « ثلاجة » .

لم تكن عين المزْقة البشرية تعدو هذه الثلاجة الفخمة ، تهفو إليها كلما فُتحت ، حتى أصبحت لطول الترصد والتعهد أكثر خبرة بمحتواها من القائمين عليها . . .

ولو سألتَ المزْقة فى أية ساعة أن تصف لك ما ضمت جوانب الثلاجة من ألوان اللحوم التى تحشى بها الشطائر الفاخرة ، لأجابتك فى غير تلعثم ولا احتباس ، تَسْرُدُ عليك ما صَدَرَ عن الثلاجة وما ورد عليها ، كأنها آلة حاسبة دقيقة التقدير والحساب .

وللمِزقة ولع أىّ ولع بترقب جانب خاص من تلك الثلاجة تقبَع فيه كتلة هرمية من اللحم الأبيض الشفاف ، يسمونها : « الديك الرومى » .

ولقد طالما عكفت المزقة البشرية على ما يتيسّر لها من أفلاذ اللحوم ونُفَاياته ، تتبين فيها ما عسى أن يكون من لحم هذا الديك ، بيد أنها لم تطمئن يوماً إلى فوزها بقطعة منه على طول التعرف والتنقيب .

لا تدرى المزقة فيم وَلَعُها بهذا النوع من اللحم على وجه التحقيق ؟ ولماذا تخصه بالتشوف والتشوق دون سواه ؟ ألشكله الهرميّ الفخم ، وهو يستوى على عرش الصحن فى خُيَلاء ؟ أم لما يفوح من قُتاره الشهىّ ، حين يستل الطاهى سكينه فيقتطع منه الشرائح البيض ؟ أم لما يرتسم على أسارير الطاعمين لشطائره من مخايل التلذذ والاستمراء ؟

لقد التقطت المزقة البشرية ذلك الاستمراء والتلذذ بلحم الديك المنشود ، وسجلتهما فى أعماق نفسها فى دقة وإتقان ، كما تلتقط آلة التصوير منظراً من المناظر فتسجله تسجيلا لا يمحى على الزمان .

إن الملذات الدنيوية على اختلاف أجناسها تراها المزقة البشرية قد اعتصرت وصهرت فى لحم ذلك الديك ، فهو فى نظرها كنزها الثمين ، ولكنه كنز فى عالم الأخيلة والرُّؤى ، لا سبيل إلى تحقيقه آخر الدهر .

وتواردت الأيام على المزقة البشرية ، تحيا حياتها المألوفة فى نطاقها المحدود ، يفصلها عن العالم الحىّ الصاخب ذلك الجدار الزجاجىّ الذى يَشفّ ولا ينيل . . . كأنما تحتويها وحدها جزيرة مستوحشة تحيط بها الأمواج من كل منحى .

وأشرقت الشمس ذات صباح ، توقظ المزقة البشرية لتستقبل معها النهار الجديد .

وعلى مألوف العادة ، كان خروجُها من الشق ، فجولاتُها فى المناطق المجاورة ، فزَحفُها إلى المطعم تلملم ما هنالك من فُتات ، فقبوعُها على الطوار تتلقى القليل من الهبات ، وتتحمل الكثير من الزجر والانتهار ، فعودتُها إلى الشق بعض الوقت لراحة وجمام .

وذات لحظة ، وهى فى استرخائها تغشاها سِنَة من النوم ، أحست شيئاً يرتطم بها ، فلم تأبه له ، ولكن الارتطام عاودها فى عنف ، كأنه ضرب متتابع ، وما أَلِفَتْ هى فيما سلف من أيامها أن تنهال عليها هذه الدفعات وهى فى ذلك الشق المتزوى : مأمنها الحصين . . .

ولم يبق للمزقة صبر على ركلات الأقدام باطراد ، فتجمعت وتطلعت ، وبان لها أن الأقدام لا تَكِزُها على عمد ، وإنما هى الزحمة والاحتشاد . فالطريق ثائر يموج بالقوم موجاً ، والأفواج تمر سراعاً فى قلق واهتياج .

وكانت الشمس وقتئذ توشك أن تودع ، متوارية خلف الشواهق ، تاركة لأشباح الليل أن تحتل كل منفذ ، ولكن أضواء المصابيح السواطع بادرت مُشْرعة أسهمها تمنع أشباح الليل من الهجوم والاقتحام . . .

وراع المزقة البشرية أن تلك الأضواء السواطع لم تكن على نحو

ما عهدت فى ساعات الغروب من الأيام الخالية . . .

ما خطب تلك الكتائب من الشفق الأحمر تتمزق فى أرجاء الأفق ، فتملأ الجو من حولها ؟

وخفّت وطأة الزحام فى هذا الجانب من الطريق ، فاستطاعت المزقة فى شِقها أن تزداد من تطلع وتعرف . وما هى إلا أن انتفضت رعباً وهلعاً ، وجمدت فى مستقرها هنيهة يعروها ذهول . ثم جعلت تتقلص حيناً وتتمدد حيناً آخر ، كالدودة الحيرى ، وهى تشرئب لكى يتاح لها أن ترى وأن تتبين .

ذلك هو الفضاء تُجاهها يربدّ ويكفهر ويتكاثف دخانه ، وتلك هى الشُّعَل تندلع ألسنتها كأنها شياطين الجحيم . . .

ثمة شواهق ثلاث تحترق . . .

ومثلت المزقة البشرية تتفرج . . .

منظر فريد لم يقع عليه بصرها من قبل . . .

وظلت المزقة فى غمرة من الدهشة والعجب ، وهى تنقل أنظارها بين هذه الشواهق المحترقة ، وقد زُلزلت زلزالها . . . فيها تصطخب أصوات الاستغاثة والفزع ، وقد مازجتها جلبة التحطيم والانهيار ، على إيقاع من زفير النار !

وطفقت الهناة البشرية ينقشع عنها ما تحسّه من رهبة وقلق ، بل

لقد تسلل إلى قلبها شعور جديد . . . لون من الراحة ، سرعان ما استحال مرحاً يتمشى فى أعطافها ، مرَحاً من نبع الغريزة فى أعماقها البدائية المتأصلة .

وانقضّت من الشواهق جدران ، وتزايلت جوانب ، ففغرت المزقة البشرية فاها . . . أيلحق الفناء هذه الرواسخ السامقة ؟ أهى تشبه الحىّ الذى يحول ويزول ؟ عجباً لها تُحتضر الآن كما يُحتضر الإنسان !

كانت هذه الشواهق فيما تحسب المزْقة البشرية كائنات لا يحل بها رَيبُ الدهر ، فهى ثابتة على الزمن ، لا يعروها وهن . . . الحيوان وحده هو الذى تلعب به الأحداث ، ويدركه الفناء ، فما بال هذه الشواهق الآن فى طرفة عين تتهاوى وتبيد ، بل إنها لتهبط إلى أدنى درجات الإذلال والابتذال؟ حرَمُها الأمين يستباح ، وهيبتُها العزيزة تُنتهك ، وأهلوها وذووها يتسللون منها لِوَاذاً فى هزيمة وانكسار ، وما ضمنتْ من غالى الرياش وفاخر المتاع تنتهبه الأيدى فى جرْأة واستخفاف .

المزْقة البشرية فى موقفها الراجف تلمح من بين الجدران المتصدعة أشباح السالبين فى هرْج ومرْج ، وقد تأبطوا صنوفاً من اللفائف والرزَم ، مما كتبت له النجاة من الحريق .

المرَح الغريزى البدائىّ فى نفس المزقة البشرية يزداد ويتوهج ، فإذا هو هيجة تحتدم فيها أشتات المطامع والنزعات .

يا للعجب العُجاب ! . . . إن المزقة البشرية لتحس فى ذهول أن ذلك الحاجز الزجاجىّ الغليظ الذى يفصل بينها وبين العالم الصاخب العظيم قد أخذ يَرِقّ ويلين ، وإنه ليبلغ من اللين والرقة أن يذوب ، فلا يبقى له من كيان .

يا للعجب العجاب ! . . . إن المزقة البشرية لتحس بأنها قد خُلِّىَ بينها وبين ذلك العالم الصاخب العظيم ، وأنه قد أصبح منها يسير المنال . . . لقد بدأ عالم الأخيلة والأساطير يفتح أبوابه للمزقة البشرية يستقبلها فى حفاوة وترحيب !

وطاف بالهناة الآدمية خاطر ، فاهتز جسمانها الضئيل اهتزازة شديدة ، وما لبثت أن تقلصت ، ثم انبسطت تزحف فى سرعة لا عهد لها بها فيما غبرَ . كيف واتتها تلك القوة التى حلت الآن فى أوصالها ؟ من أين لها هذه السطوة التى تستشعرها باعثة لها على الإقدام والاقتحام ؟

كلما لاحت لها الأشباح فى غدوّ ورواح ، ظافرة بالغنائم والأسلاب ، ألْفَتْ جسمها يخفّ بها دالفاً إلى مكان مقصود ، وهدف منشود !

وما هى إلا أن تسربت فى المطعم . . . إنه لينقلب الساعة خليطاً من شُعَل وأنقاض ، خليطاً من تدافع واصطدام ، خليطاً من لهفة محروم ، وفرْحة منتهب !

ولكن المزقة لم تكن لِتُعْنَى بشىء ، إنها بصيرة بما تنشُد ، وإنها

لتعرف خطاها إليه ، وتلك هى تمرُق حتى تستقر عند الخزانة التى كساها الدخان ثوبه ، وفى لمح البصر تشبثت المزقة بها تعالج فتحها ، ولم تمض لحظة حتى تعلقت برفوفها تقتلع الكتلة الهرمية ، كتلة اللحم الأبيض الشفاف . . .

طارت المزقة البشرية بهذا الديك العظيم ، تنجو به من المطعم وأصحاب المطعم ، ومن النار وأصحاب النار .

إنها الآن فى الطريق تزْحَف متعجلة ، وهى ترتعد اهتياجاً ، وقد اتخذت إحدى يديها عوناً لها على الزحف ، واستبقتْ يدها الأخرى تضم بها إلى صدرها العارى ذلك الكنز الثمين ، أو بالأحرَى : السمين !

إنها تمضى ، وتمضى . . . ولكن إلى أين ؟ وكيف المفر ؟ سؤال لم تجد له المزْقة فى ساعتها تلك من جواب .

إنها ماضية ، فى حِضنها كنزها الغالى ، تحس لحمه الغض الشهىّ يلمس صدرها ، ليشعرها بأنه فى حوزتها ، لايقاسمها فيه شريك .

وواصلت زحفها ، وسمعتْ خلفها خفقَ أقدام . . . وتناهَى إليها بعد ذلك لغط ، تبينتْ فيه ألفاظاً لا تبعث على ارتياح . . . فجدّت زاحفة تتشبث بالديك ، وكأنها أم تحتضن طفلها الأعز لتحميه من عدو يريد به الفتك .

وتلاحقت الخطا خلف الهناة البشرية حتى أدركتها . . . إنها خطا

الغلمان من عُفاة الطريق تهدد وتتوعد ، وتطلب أن يكون لها فى الديك حق معلوم .

وتجمّع الغلمان على المزقة البشرية يحاولون انتزاع الديك . . .

وكانت معركة ، هى معركة القوة حين تستطيل على الضعف ، ولكنها كانت أيضاً معركة الحياة حين يدفع فيها الضعيف عن نفسه ، فإذا هو ذو شِرَّةٍ وبطش وجبروت .

لم تجد المزقة البشرية من مَخْلص إلا أن تتكور جاثية على الديك ، تحفظه من الطامعين فيه ، مستأثرة لنفسها به : أسنانها تنهش ، وحُلقومها يبتلع ، تاركة ظهرَها دِرْعاً تتلقى الطعنَ والعراك . . .

واستحرّ الشجار دقائق . . .

واستطاعت الغلمان بعد لأى أن تقلب المزقة البشرية ظهراً لبطن ، وأن تستخلص ذلك الكنز الذى دارت من أجله المعركة الضَّرُوس . . .

فإذا الديك هيكل من عظام .

وإذا المزْقة البشرية جثة هامدة !

(لذكرى فتنة ٢٦ يناير سنة
١٩٥٢ – يوم حريق «القاهرة»)

كُنّا أربعة

أنا من قراء الصحف الذين يقطعون أوقاتهم بمطالعة الحوادث والأخبار ، لا أستثنى إلا تلك المناعى التى تتقاطر من بين سطورها الدموع ، أعنى أنباء الوَفَيَات !

مالى ولهذه الأخبار التى يحصرها إطار حالك من السواد وشارة الحداد ؟ مالى ولهذه الفجائع التى تذوب من حولها قلوب وتتفتت فيها أكباد ؟

لقد جَبَلَنى الله نَفُوراً من الموت والموتى ... أشَقّ الخطا عندى خطاى إلى المقابر ، وأبغض المشاهد إلىّ مشاهد الجنائز ، ولا تنقبض نفسى لشىء كما تنقبض إذا ضمنى مأتم . . . أى جدوى لهذا كله إلا تعكير صفو الحياة ، وإلا تنغيص النفس بشىء لا مفر منه لكائن حىّ ، ولا حيلة فيه لمُقْدِمٍ عليه أو محجم عنه ؟ كيف أستبيح لنفسى هذا التعكير والتنغيص ، جاحداً فضل الله فى إسباغه ثوب الصحة علىّ ، وتوفيره جانب السلامة لى ؟ ما للحىّ يطمس لألاء الحياة أمام عينيه بظلمة الموت ؟ !

ويوماً راقنى مقال فى صدر إحدى الصحف ، فمضيت أطالعه ، وكانت للمقال بقية فى الصفحة السابعة ، فطويت الصحف تباعاً إليها ، فأخذتْ عينى صورة يجللها السواد ، تملأ جانباً كبيراً من باب الوفيات . وكانت الصورة فوقها عنوان ظاهر ، وتحتها أبيات من الشعر ، فوجدتنى أتوسم الصورة وأقرأ ، ولم ألبث أن شُغِلت عن بقية المقال التى كنت أطلبها ، وشرَد بى الفكر يتخطى الأيام والسنين إلى عهدى الأول ، عهد النشأة والصبا . . . لقد تبينت أن الصورة التى أجتليها ليست إلا صورة امرئ كان لى إبّان الدراسة رفيقاً ، وأن ألواناً من الذكريات تربطنى به فى تلك الأيام الحلوة من شبابنا النضير .

ورأيتنى أترك الصحيفة ماضياً إلى صِوان قديم تتجمع فيه أشتات من مخلفات العهود ، وجعلت أنبش فيه وأفتش . وبعد لأى وجدت ما أطلب ، صورة لى فى رُفقة من أقرانى يرجع تاريخها إلى ربيع الشباب . فأخرجتها من مكمنها السحيق ، وطفقت أحدّق فيها والفكر يحلق بى فى بعيد من الآفاق . . .

هأنذا رابع أربعة يتجلون فى الصورة فتياناً تتضوأ على وجوههم بسمة الأمل ، وفرحة الحياة . . . أولنا : صديقنا « سامح » ذلك الذى قرأت الساعة مَنْعاه فى صحيفة الصباح ، وعن يمينه « شوكت » ، فيليه « وصفى » ، فالعبد لله ...

كنا أربعة نتزامل فى المدرسة ، ونؤلف جماعة لا تنفصم عُراها . . . ميولنا متشابهة ، وأعمارنا متقاربة . ولأمر ما فكرنا فى أن تجمعنا هذه الصورة قُبَيْل تخرُّجنا فى المدرسة . أفكان القدر يوحى إلينا بأن نسجل هذا التَّذكار قبل أن تعصف بشملنا يد التفريق ؟

لم نكد نفرغ من المدرسة حتى أخذ كل منا طريقاً يختلف عن طريق أصحابه . فأصبحنا لا نتواصل ولا نتراءى فى قريب أو بعيد . ولقد لبثت حتى نيّفتُ اليوم على الخمسين ، لا أعرف شيئاً من أمرهم جميعاً ، إلى أن وافتنى صحيفة الصباح برسم صديقى « سامح » حين انقطعت أسباب دنياه من أسباب دنياى !

وتواردت الذكريات تجلو لى صفحة من حياتنا فى تلك الحقبة الغابرة ، حين كنا نحسَب الأقدار طوع يميننا ، ندعوها فتستجيب ، ونرغب إليها فى عوننا فلا يخيب لنا معها رجاء . . . ما أروع تلك الأمانىّ التى بنيناها قصوراً شوامخ ، ووقفنا تجاهها نتملى بهاءها ونشعر بما لنا من عزة وسطوة واقتدار ! . . . وإنى لأتلفت اليوم لأنظر أين أنا من هذا كله ؟ وماذا صنعت به الأيام ؟ فتسنح على فى ابتسامة هزيلة ، وأجد وَقْدَ الحسرة يتنزى به قلبى .

ورجعت إلى الصورة التى تجمع الأربعة الرفاق ، فجعلت أرنو إلى « سامح » والعجب آخذ منى كل مأخذ . . . إنه كان أحدَثنا

فى السن ، وأوفرنا نصيباً من قوة البنية ، وأكثرنا تمرساً بفنون الرياضة .

وألفيت يدى تجرى تحت صورته ، تخط تاريخ وفاته . . . وألقيت بالصورة عن كثب منى ، وأشعلت لفافة ، ثم أرخيت للفكر العنان.

وراعتنى تنهدة عميقة أفلتت من صدرى ، فاختلجت لها أوصالى ، فنهضت من فورى أنفض من حولى أطياف الهموم والأشجان . وجزْتُ فى طريقى إلى البهو بمرآة ، فأبطأتْ قدمى قُبالتها ، ومكثت هنيهة أدقق النظر فى قسمات وجهى .

يا سوء ما أرى ! . . . ما هذه الغضون التى تعقدت تحت عينىّ ؟ وما بال ذلك الشعر الأبيض يغزو فودىّ ؟

ولويت عن المرآة رأسى ، وتابعتُ إلى البهو خطاى ، وما عتمت أن أطلقت من بين شفتى ضحكة استهزاء . . . أى شأن لتلك التجاعيد وهذه الشعرات ؟ . . . وعدلت قامتى ، وبسطت صدرى ، وأرسلت سَعْلة قوية تفصح عن ثقة بالنفس ، ومضيتُ أدقُّ الأرض بخطواتى ، ثم أعليت صوتى أنادى سائق السيارة ، قائلا له :

سأخرج قبيل الساعة الثالثة لأشيّع جنازة . . .

واحتوانى الصف الأول بين المشيعين لجنازة رفيق صباى « سامح » ، وأمام عينى نعشه تحمله الأعناق . وكنت أتمثل الصديق فى رقدته رفاتاً هامداً لا حول له ولا طول ، فأجدنى لا ألبث أن أطيف ببصرى

فيما حولى ، أستمرئ ما تزخر به الدنيا من حركة ونور ، وأستشعر يقظة العيش وحرارة الحياة !

وخطر لى وأنا من وراء النعش أن أتفقد صديقىّ الآخرين : « شوكت » و « وصفى » ، فلم أجد لهما بين الناس ظلا . فأنكرت منهما هذا الإخلال بحق الصحبة ، وذلك الجحود لفضيلة الوفاء . وساءنى منهما أنهما قد ضنا ببضع خطوات يودّعان بها رفيق صباهما إلى مقرّه الأبدىّ !

وحرصت على أن أقفو أثر الفقيد حتى يوارَى فى رمسه ، ومثّلت قُرابة الرمس أرقب الجثمان ملففاً فى أكفانه ، واللحّادون يحتملونه بين أيديهم ويغيّبونه فى بطن الثرى ، ويضعون الجنادل على فم القبر ، ثم يهيلون فوقها التراب ! . . . وعلى الرغم مما يثيره هذا المشهد من كآبة وانقباض ، فقد أبيت إلا أن أشرب به كأساً حتى الثمالة ، ورجعت أدراجى إلى الباب ، فوافقت فيه كبير أسرة الفقيد ، فشددت على يده أعزيه فى حرارة ، واندفعت نحو السيارة مطمئن النفس بأنى أديت واجباً لم يكن من تأديته بدّ ، فأرضيت ضميرى ، وأقررت عين المروءة والوفاء .

وأمضيت ليلتى ينبو بى المضجع ، فإن أخذنى النوم فزّعتنى أضغاث أحلام . . . وأصبحت أواعد نفسى الخروج أصيلا للتزهة والترويح عن النفس ، وما إن استيقظت من نومة القيلولة حتى سارعت إلى ارتداء حلتى ، ووقفت تجاه المرآة لحظة ، فلم يرقنى رباط الرقبة

الأقتم العبوس ، فما هى إلا أن نزعته ، واستبدلت به رباطاً بهيج الألوان . وخرجت إلى النادى أرنح أعطافى ، فقضيت فيه أمسيّة شائقة أصبت فيها من ضروب المتع ما لذ وطاب .

وكنت فى اليوم بعد اليوم وأنا أطالع الصحف ، أرانى قد انزلقت عيناى إلى أنباء الوفيات أعبرها على كره ، لا أدرى أىّ حافز هو دافعى ؟ ولا أعرف أية غاية أنا أريد ؟

وليلة وقد جلست إلى مكتبى أنبش أوراقى ، برزتْ لى صورة الرفقة الأربعة ، فأرعيتها نظرى بعض وقتى ، وساءلتُ نفسى :

أليس من الواجب أن أعرف إلى أىّ مصير سيق رفيقاى الباقيان : « شوكت » و« وصفى » ؟

وصبحاً وأنا أتأهب للخروج باحثاً عن هذين الصديقين ، ألقيت على صحيفة الصباح نظرة خاطفة ، فما راعنى إلا أن أشهد اسم « شوكت » فى طليعة أنباء الوفيات ، عاجلته المنية فجأة ، وهو فى أكمل عافية وأتم صحة . وذهلت أشد الذهول . ما هذا ؟ أى اتفاق عجيب ذلك الذى جرى لى اليوم ؟ أكنت أفكر فى صديقى « شوكت » وهو يسلم الروح ؟ أ أخطو إلى زيارته ، فيسبق إلىّ نعيه ؟

وعجلت إلى مكتبى أتملى صورة الرفقة ، فزادنى عجباً أن فقيد اليوم « شوكت » يقع من الصورة تالياً لفقيد الأمس « سامح » .

ما سر هذا الترتيب والتعقيب ؟ أثمة فى الأمر تدبير خفىّ تصنعه الأقدار وراء الغيوب ؟ وجعلت أقلب مختلف الآراء ، وأتصفح وجهات النظر ، فانتهيت أخيراً إلى أن ما جرى اليوم ليس إلا مصادفة محضة لا تقتضى كبير تأمل ، ولا تستوجب أن تقام عليها فروض وأحكام .

وانكببت على المكتب أخطّ تحت صورة « شوكت » تاريخ وفاته ، كما صنعت يوم انتهى إلى نعى الصديق « سامح » . وما أسرع أن ناديتُ سائق السيارة أقول له :

سأخرج قبيل الساعة الثالثة لأشيع جنازة .

وبعد أن أصبت غَدائى فى الواحدة بعد الظهر ، استلقيت أتقيّل ، فما إن اغتمضَتْ عينى حتى زحفتْ علىّ أشباح ومشاهد هاجت لها أعصابى ، وتبينت من بين هذه الأشباح والمشاهد جسمان صديقى « سامح » ملففاً فى أكفانه ، تحتمله الأيدى ، وتُدْلى به إلى مستقره تحت الجنادل ، ثم تغلق عليه منافذ الهواء والنور ، وكأنما انفرج القبر مرة أخرى بعد لحظة ليستقبل جسماناً جديداً هو جسمان صديقى « شوكت » وقد تخايل وجهه مصفراً ناصلا تعلوه القتامة والتجهّم ، فانتبهت من سِنة نومى مزعَجاً واجف القلب ، أطلب إسعافى ببعض المنعشات . . . وبينا أنا جالس على المقعد المريح منسرح الفكر ، إذا بالسائق يقبل علىّ قائلا : أزِف موعد الجنازة !

فقمتُ إلى مكتبى ، وجذبت منه ورقة ، وأجريت القلم فيها بكلمات ، ثم التفتُّ إلى السائق أناوله إياها ، وأنا أقول له : هذه برقية تعزية ، فابعث بها . . . إنى متوعك ، لا طاقة لى بالخروج !

وفى مغرب الشمس كنت قد استكملت ارتداء حلتى ، وانتقيت لعنقى ذلك الرباط البهيج الألوان . فأقلتنى السيارة إلى النادى ، حيث أمضيت أمسيّة شائقة أصبتُ فيها من ضروب المتع ما لذّ وطاب .

وترادفت أيام لم أجد فيها لنفسى من قرار ، ولم أعرف لذلك من باعث يسكن إليه البال .

وجلست يوماً أمام مكتبى أنقب وأقلب ، فإذا يدى تتصيد الصورة المعهودة ، صورة الرفقة الأربعة الذين ذهبت المنية منهم باثنين فيما انتهى إليه علمى . . . ولبثت ملياً أرنو إلى صورة « وصفى » ثالث الأربعة الرفاق ، وإذا أنا أناجيه : ترى كيف أنت ؟ وماذا صنع الله بك ؟ أعلى ظهر الأرض تعيش ، أم طاف بك طائف المنون ؟ !

وجعلت أرجع على نفسى لائماً إياها ، إذ كنت أعرض عن أنباء الوفيات منذ سنين ، وكان خليقاً بى ألا أهمل هذا الجانب الحىّ من جوانب المجتمع البشرىّ !

وهببت واقفاً وقد بنيت عزمى على تدارك ما فرّطت فيه . إن علىّ الآن أن أتقصّى نبأ « وصفى » . غير لائق بى أن أستهين بحق الصحبة السالفة ،

وحرام علىّ ألا أرعى عهدَ الإخاء القديم .

وطفقت أقدّح ذاكرتى ، لأبتعث ما كمن فيها من مشاهد الأمس البعيد . . . أ أنسى أن « وصفى » كان أمثل الرفقة خلقاً ، وأصفاهم قلباً ؟ وأنه كان أطوعهم استجابة للمودة ، وأسرعهم صنعاً للجميل ؟ ليت شعرى ماذا منعه أن يسأل عنى ؟ بل ما أسوأ موقفى منه إذْ أهملت التفقد له ، والسؤال عنه . . . لزام علىّ أن أمحو هذه القطيعة بينى وبينه ، وأن أجدّد معه عهد الأخوة والوداد . . . لا فجعنى الله فيه ! . . . لا كان إلا سالماً معافى !

وأذكيتُ همتى فى البحث عن « وصفى » ، حتى عرفتُ بعد المجهود أنه فى قيد الحياة ، وأن الدنيا بخلتْ عليه بالحظ السعيد ، فعاش مغموراً لا جاه له ولا طول .

وفى أصيل يوم مضت بى السيارة إلى حىّ « مصر القديمة » حيث يقيم « وصفى » ، فدُللتُ عليه فى قهوة وضيعة هى له مستقر ، وطالعنى طيفه وهو فى ركن من القهوة قابع يدخن لفافته فى تبلد ، فتدانيت منه هاتفا باسمه ، وبسطت له يدىّ أستقبله ، وأنا أردد : « وصفى » . . . « وصفى » . . .

وأردفت أقول : ألا تذكر صديقك القديم ، صديق التلمذة ؟

ورأيته يتطلع إلىّ مشدوهاً ، وهو يحاول أن يحدّ ذاكرته ، وما لبث

أن لاحت على وجهه المغضَّن المكدود بسمة مهزولة ، ونهض يصافحنى ، فضممته إلىّ وأنا أربّتُ ظهره ، فجاشت نفسه ، ولمحت عليه ظواهر التأثر ، فابتدرته أقول : ما أجمله اتفاقاً أن أراك فجأة وأنا فى طريقى إلى لقاء بعض المقاولين فى هذا الحىّ . . . لم تذهب عن فطنتى سماتك ، على الرغم من تقادم الزمن ، فما كادت عينى تلمحك جالساً حتى عرفتك . . . كأنك لم تغب عنى يوماً !

وسرعان ما تطارَحنا أطراف الأحاديث ، كلانا يسأل صاحبه عن حاله ، ويترحَّم معه على عهد مضى ، مرتْ بعده حلاوة العيش ، وانكدرت بهجة الأيام !

وانساق بنا الحديث إلى صاحبينا اللذين ضمتهما صورتنا . . . صورة الرفقة الأربعة ، ووضح لى أن « وصفى » لا يعلم من أمر الصاحبين شيئاً ، وأنه لا يدرى أمن الموتى هما أم من الأحياء ؟ فأخفيت عنه حقيقة ما أعلم ، وصرفت عن ذلك وجه الحديث .

ولما حان لى أن أنصرف ، شددتُ على يد صديقى وأنا أقول :

لا فراق بيننا بعد اليوم . . . فلنجدد من صداقتنا ما انقضى ، ولنستعد تواصلنا كما كنا فى زهرة العمر . . .

أدبرت عن الصديق جالساً فى قهوته ، وقد ثارت فى نفسى مشاعر أورثتنى هماً . . . وارحمتاه لهذا الصديق المنكوب ! يا سوء ما صنعت

به الأيام ! لكأنه حيالى جدار يريد أن ينقض . . . وأية حياة تلك التى يمارسها فى هذا النطاق الضيق من العيش ؟ إنه لا يعرف من دنياه إلا هذه الرقعة من الأرض بين مسكنه وقهوته فى تلك المرامى الوضيعة !

ورجعتُ أدراجى إلى دارى ، فتوخيتُ مكتبى من فورى ، واستخرجت صورة الرفقة الأربعة أتطلع فيها ، ووجدتنى أقرأ تاريخ وفاة الصديقين الراحلين على التعاقب ، وأتوسم طيفيهما وهما واقفان جنباً إلى جنب ، ثم إذا بعينى تلتفت إلى الشطر الآخر من الصورة ، شطر الصديقين اللذين ما يزالان فى الأحياء : « وصفى » ، وأنا من بعده !

وطارت بى الأفكار كل مطار ، ونظراتى تتنقّل بين طيفينا فى صورة الرفاق . وتمثل فى خاطرى شبح صديقى حين رأيته اليوم متهالكاً متداعياً قصمت ظهره الأحداث ، وراعنى أن ذلك الجسد المنهوك لا قِبَلَ له بمصارعة الزمن ، ولا طاقة له على مغالبة الحياة . . . أتراه يسير قُدُماً إلى مصيره المحتوم الذى سبقه إليه رفيقاه ؟ أترى الأقدار قد رتبت فى تلك الصورة مصاير هؤلاء الرفاق واحداً إثر واحد ؟

وعدلتُ عن المكتب أخطو نحو الشرفة ، وأنا أنشد طراوة النسيم ، وجعلت أذرع الأرض ذهاباً وجيئة . . . ما لى أقيم لهذه الوساوس وزناً ؟ مالى أعكر صفو يومى علىّ بهذه الأفكار السود ؟

وما هى إلا أن ناديتُ سائق السيارة أطلب إليه إعداد العدة ليخرج

بى إلى ملهى أقضى فيه أمسيّة ضاحكة .

وفى غدى ألفيت خطاى تقودنى إلى الطريق الذى طرقته أمس . . . ولقيت هناك صديقى « وصفى » فى ركنه المعهود ، تستغرقه تلك الغمرة من البؤس والخمول . ولم يعز علىّ أن أستخرجه من بين روّاد القهوة ، ماضياً به إلى بعض المنازه ، ووجدتنى أسأله : فيم إهماله وتفريطه فى حق نفسه ؟ ولم استكان إلى هذا اللون من معيشة جدباء لا متعة فيها ولا أنيس ؟ وألفيتنى أحدّق فيه وقتاً ، ثم قلت : أتشكو علة ؟

فنظر إلىّ بعين كاسفة ، واليأس يمزق نبرات صوته ، وأجابنى :

لو كانت علة واحدة لاحتملتها !

ــ أنت كشأنك منذ صباك ، تبالغ وتغلو . . .

ــ أليست حالى كما ترى ؟

ــ أنت مجهود ، أما بنيتك فسليمة ، وكل ما تشكو منه عارض يزول بقليل من الرعاية والتعهد . . . لم لا تستشير طبيباً ؟

فلوّح بيده تلويحة استخفاف ، وهو يقول :

ماذا يصنع الطب فى جسم تخوّنته الأمراض ؟

فصحت به : هُراء . . . هراء !

وطفقت أتلطف به ، وأتحيّل له ، حتى بثثت فى وليجة نفسه رُوح التفاؤل والأمل ، فأمضى معى تلك العشية ضاحك السن ، هانئ البال .

ورجعت إلى بيتى قرير العين بما فعلت . أكان من الوفاء لعهد الصحبة أن أدع هذا الصديق فريسة لهمومه وآلامه ؟ أليس خليقاً بى أن أوليه من الرعاية جهد ما أستطيع ؟ ذلك نداء المروءة يدعونى أن أكون براً بأليف الصبا وقرين الشباب . . .

وضربت مع صديقى موعداً أصحبه فيه إلى الطبيب ، وتخيرت له طبيباً استفاضت شهرته ، وانعقد الإجماع على مهارته ، وأوصيته بألا يدخر وسعاً فى الفحص والبحث ، وأن يتخذ لذلك ما شاء من وسائل التحليل والاستبصار ، فقام الطبيب بذلك خير قيام ، وعين لنا يوماً نزوره فيه ليطالعنا بتقريره .

وفى اليوم الموعود مضيتُ إليه أنا وصديقى نتعرف ، فاستقبلنا الطبيب على فمه ابتسامته المطبوعة ، وبعد أن اتخذ مجلسه ، وأفاض فى الحديث عن جهوده ومتاعبه فى خدمة مرضاه ، قضى هنيهة صامتاً يقلب بين يديه أوراقه فى استخفاف ، وعيوننا مشرَعة إليه ترقب ما تنفرج عنه شفتاه ، ثم التفتَ إلى صديقى « وصفى » قائلا له ، وهو يسدّد إصبعه نحوه ، وما زالت ابتسامته المطبوعة على فمه : واجبى باعتبارى طبيباً يقتضينى أن أصارحك بالواقع . . . لقد تبينَ ما بك . . . إنه ضغط دم مرتفع ، فضلا عن إجهاد فى القلب .

فما كادت هذه الكلمات تبلغ سمعى ، حتى أشرعتُ عينى إلى

صديقى أستوضح وَقْعَ ما قاله الطبيب فى نفسه ، فإذا هو يرنو إلى الطبيب فى بلاهة وتبلد . وألفيتنى أتحرك فى مقعدى ، مقبلا على الطبيب فى لهفة ، أريد أن أسأله عما يجب أن يتبعه الصديق فى علاجه ، فتفطن الطبيبُ من فوره إلى مرادى ، وأشار بيده إلىّ يقول :

رويدك يا سيدى ، فإنى لم أتم حديثى !

ثم التفت إلى صديقى وتوخاه بقوله : لا أحب أن أخدعك . . . مهما يكن من أمر العقاقير فإنها لا غَنَاء لها وحدها . . . ثمة برنامج عليك أن تأخذ نفسك به ، فإن لم تفعل فلا نفع لطب ولا جدوى لدواء . . . لا تنكر ما أخبرك به . . . أنت مدمن تدخين !

فأجاب الصديق مطأطئ الرأس وقد أخِذ بما سمع : حقّ ما تقول .

— لا بد لك من الإقلاع عن التدخين كل الإقلاع !

ففغر الصديق فاه قائلا : كيف ؟

وتابع الطبيب قوله فى حماس : لزام أن تجرى فى معيشتك على نظام مستقيم . . . لزام أن تتجنب سائر الأشياء المثيرة فيما تطعم أو تشرب . . . حتم أن تحيا حياة صحية أساسها الاعتدال .

ثم انكب الطبيب على دفتره يكتب تذكرة الأدوية ، وقائمة المباح وغير المباح من الطعام والشراب . . . ولما انقضت الزيارة ، وتهيأنا للانصراف ، تقدمنى « وصفى » إلى الباب ، فتطلعتُ إلى الطبيب

أسائله بنظرات ملؤها الفضول ، فمال علىّ قائلا :

إن صاحبك يفتقر إلى مزيد من العناية .

وبارحت دار الطبيب أحس الضيق وتوتر الأعصاب ، وعجبت لصديقى كيف يتلقى حديث الطبيب فى غير مبالاة ، بل لقد أثارنى وهو يقول لى فى بعض الطريق : ما أكثر ما سمعت من الأطباء . . . وما أقل استفادتى مما يخوضون فيه من هُراء . . . إنهم يهرفون بما لا يعرفون .. أنا بنفسى أدرى ، وبعلاجى أوفر خبرة !

فرددت عليه أقول : ماذا تقول يا « وصفى » ؟ أيليق هذا القول برجل مثلك أصاب من العلم حظاً ؟ كيف لا تثق بالأطباء ؟ كيف لا تؤمن بما يصفون من علاج ؟

فهزّ لى رأسه هزة إصرار ، وما لبث أن مال على يدى يصافحنى مستأذناً فى الانطلاق ، معتذراً بأنه على موعد يخشى عليه الفوات.

ومضيت وحدى أتصفح ما كان الساعة . . . يا لهذا الصديق من أحمق جهول ! مالى أعانى من أجله المتاعب ، ما دام هو لا يعرف حق نفسه عليه ؟ لقد أبلغتُ نفسى عذرها ، فلأنفض من هذا الأمر يدى !

وفى رونق الضحا من غدى ، وجدتنى أقصد حىّ « مصر القديمة » مدفوعاً إلى ذلك بباعث خفىّ لا أدرك له كنهاً ، واقتحمت على الصديق حجرته ، فواجهتنى سحائب الدخان تتعقد فى الفضاء ، ولمحت « وصفى »

يكرع من قدح القهوة ، فتدانيت منه أداعبه بقولى : مَرْحَى ! . . . مَرْحَى ! . . . حقاً لقد أخذت تنفذ أوامر الطبيب !

فرنَّتْ ضحكته وهو يقول : ما للطبيب ومالى ؟ أنا بخير والحمد لله !

فحاولت أن أكظم غيظى ، ثم قلت :

ألم تعلم أن الضغط فى دمك مرتفع ؟

ـ أى ضغط يا سيدى ؟ لكل أجل كتاب !

فاندفعت أقول فى جدّ وحزم : أتعلم نتيجة ضغط الدم ؟ إنها الذُّبحة الصدرية والعياذ بالله . . . إنها الشلل . . . إنها . . .

فقاطعنى « وصفى » مغضَباً يقول :

على رِسلك . . . فأل الله لا فألك !

ولكنى لم أملك إلا أن أفيض فى بيان النتائج التى تترتب على إهمال ضغط الدم وإجهاد القلب ، وبى فى الوصف حميّة وحماس .

وأكملت حديثى قائلا فى حدة وشدة : تلك هى الحقيقة أجاهرك بها ، فاصنع ما ترى . . . إنى لك ناصح ، وأنت على نفسك تجنى لا علىّ !

وألفيت الصديق يكسو وجهه قتام ، وهو يهمهم فى سهوم :

أإلى هذه الدرجة بلغت بى العلة ؟

فأقبلت عليه أجلس قرابته ، وقلت له وقد سكنت حدّتى ولان

منطق : كان علىّ أن أثير اهتمامك يا « وصفى » . . . فليست الحياة عبثا ، وليس العمر ألعوبة . . . فى مقدورك أن تتدارك أمرك ، وتتلافى ما فرط منك .

ثم طفقت أربّتُ كتفه ، وأنا أتابع قولى : انهض معى نغادر هذا المحبس الضيق ، ونتنسم الهواء الطيب فى مكان طلق .

فانقاد لى الصديق ماضياً معى إلى الطريق ، فقضى فى صحبتى وقتاً ممتعاً كان فيه ضَحوك السن ، ظاهر المراح . ولم أتركه حتى كان قد آمن بضرورة العناية بصحته ، وقطع لى على نفسه عهداً أن يأخذ من المرض حِذْره ، وأن يجرى فى معيشته على نظام صحىّ مرسوم .

وأحاطت بى شواغل عَدَتْنى عن « القاهرة » بضعة أيام ، فما إن رجعتُ عصراً حتى استنكفت أن أقصد إلى منزلى قبل أن أعرجَ على دار صديقى « وصفى » أتبين أخباره ، فوافقته فى حجرته معتكفاً ضجيع الفراش ، وقد رانت على وجهه دُكنة ، واضطربت منه الأنفاس ، فهرعت إليه أقول : ما بك ؟

— لا شىء . . . لا شىء !

ولاحظت أنه يتَزْوى عنى بصره ، فلم أدعه حتى أقرّ لى بأن دُواراً عنيفاً ساوره حتى كاد يفقده وعيه ، فجعلت أستدرجه فى الحديث لأخبرَ خبره فيما اتخذ من علاج ، وهو يتفلت ويتملص من الجواب ،

وأخيراً صارحنى بأنه لم يفعل من شىء على الإطلاق . فحدجته بنظرة حامية ، وقد استشطتُ غضباً ، وصحت به : أنت تقضى على نفسك ، أنت تتعجل حَيْنك ! . . . الدوار آخر إنذار ، لاشىء بعده إلا الطامة الكبرى . . . لقد يئستُ منك كل اليأس ، فلا شأن لى بك من بعد . . . لن ترانى يوماً !

واستدرت أطلب الباب فإذا بالصديق يجتذب طرف سترتى وهو يقول فى صوت متثلم النبرات : أترضى أن تترك صديقك وهو على هذه الحال ؟ حرام عليك !

فرجعت بصرى إليه أقول : وما حيلتى فيك إذا كنت تسخر من رأى الطبيب ونصْح الصديق ؟

فرفع إلىّ يده قائلا : أعدك بأن أكون طوْعَ ما تشير به أنت والطبيب . . . اغفر لى ما كان منى . . . حسبى أنى أسأت إلى نفسى !

كانت خطة واحدة هى التى وضح لى أنها كفيلة بتحقيق ما أريد . . . تلك هى أن ينتقل صديقى « وصفى » إلى دارى ، حتى يتسنى لى أن أشرف عليه أتم إشراف . لقد وقعت فى نفسى ضراعتُه ، وأدركنى عليه إشفاق ، فهيهات أن أقصِّرَ فيما يجب علىّ نحو تمريضه وعلاجه .

استقلّ صديقى بحجرة فى دارى ، حجرة مشمسة طلقة الهواء ، رحيبة الأكناف ، تتوافر لها أسباب الراحة وطمأنينة العيش . ولم أكتف

بخدم البيت يرعونه ويؤدون حاجاته ، بل لقد تخيرت له خادمى الخاصّ ، فأقمته على بابه رقيباً يتعهد ويترصّد ، وعلم الله أنى ما بخلتُ على صديقى بلون من ألوان الرعاية والتلطف ، فقد كنت أدعو له الطبيب فى فترات متقاربة ، وأتولى بنفسى إنفاذ التعاليم الصحية له على أدق وجه .

وترادفت أسابيع تبدلت فيها حال الصديق ، فأشرق وجهه ، وتلألأت عيناه ، ودَبّ النشاط فى جسمانه ، وانبسطت على نفسه سكينة واطمئنان .

وعُدْته يوماً ، فأقبل علىّ يشدّ على يدى ، ودمع الشكر يندّى مقلتيه ، وهو يهمهم : لا قلب أطيب من قلبك أيها الصديق . . . لست أدرى بأىّ لسان أحمدُ لك ما صنعت من جميل !

فلاطفته باسم الثغر أقول : ما عملتُ إلا ما أملاه علىّ ضميرى ، وإن رفيقاً مثلك لجدير أن أعرف له حرمة العهد القديم .

وساعةً كنت جالساً إلى مكتبى ، أرتب ما تبعثر من أوراق ، فبرزت لى تلك الصورة ، صورة الأربعة الرفاق ، فأرعيتها نظرة عجلى ، ثم ما عتمت أن قذفت بها فى قاع الدرج الأسفل ، وقد تعالت ضحكات الهزؤ من بين شفتى !

وشرع الصديق يرافقنى فى خروجى إلى بعض المتنزهات والأندية ، أول عهده بالإفاقة من مرضه ، على أنه ما كاد يحس وفور العافية فى

بدنه ، حتى جعل يعتلُّ ببعض المعاذير ليخرج وحده ، فلم أقف حائلا بينه وبين ما يريد ، بعد أن استبانت لى طمأنينة الطبيب إلى ما توافر له من سلامة وإبلال .

ورابنى من الصديق أنه يكثر من الخروج ويطيل الغيبة ، ولا سيما فى الليل ، فأوصيت خادمى أن يكون على مرقبة منه ، يتعرف خاصة شأنه ، فجاءنى الخادم صبحَ يوم ينبئنى بأنه اشتمَّ من فم « وصفى » ريح الخمر ، وأنه لمحه يختلس أنفاس الدخان . . . فانساقت خطاى إلى حجرة الصديق ، ودخلتها بغتة ، فلما رآنى حياله ، قذف من النافذة بشىء فى يده ، فتضاحكت محنَقاً أقول :

إذا استطعت أن تقذف باللفافة من النافذة ، فما حيلتك فى رائحة الدخان التى تملأ أرجاء الحجرة ؟

فتلعثم « وصفى » وبدا محرَجاً ضيق الصدر ، فجلست قريباً منه أقول : هذه أعمال صبيانية يا صديقى !

فاكفهر وجهه ، وقال : أىّ أعمال صبيانية تأخذها علىّ ؟

— مخالفتك لأوامر الطبيب . . .

— أتلزمنى أوامره إلى الأبد ؟ . . . لقد انتهت مدتها !

— الطبيب لم يرخص لك فى أن تدخن . . .

فاشرأبَّ إلىّ يقول : أ أقضى بقية أيامى أسير العلاج ؟

– إذا كان هذا سبيل نجاتك فلا مفر لك منه .

فنهض الصديق متململا متبرماً يقول :

لكلّ أجل كتاب . . . والأعمار بيد الله !

– عدتَ إلى كلامك القديم .

– أحَبّ إلىّ أن أعيش يوماً كما أهوىَ ، من أن أعيش عاماً فى قيود من الأوامر والنواهى .

فمثلت أمامه مهتاجاً تكاد يدى تهوى على صُدْغه تصفعه ، وصحت به : مثلك لا يستأهل إلا أن يعيش كما تعيش الأنعام !

فاحتقن وجه « وصفى » وعلا صوته يقول :

أتسبنى ؟ لا مقام لى فى بيتك منذ الساعة !

وما لبث أن برحَ الحجرة مندفعاً كالعاصفة ، فعجبت من أمر الرجل الذى أساء تقديره لعاطفتى نحوه فلم يثمر فيه الجميل ، ووجدتنى أستشعر اشمئزازاً منه ، واستنكاراً له ، فأقسمتُ أن أقطع ما بينى وبينه من أسباب . . . وغادرت الدار لبعض شأنى ، فلما عدتُ فى الظهيرة سألت الخادم : ألم يحضر أحد ؟

– لا ياسيدى

فوجدتنى أقصد حجرة « وصفى » ، فعاجلنى الخادم بقوله :

إنه لم يعد يا سيدى . . .

– وهل سألتك عنه يا غبيّ ؟ أريد أن آخذَ بعضَ الأشياء من الحجرة . . .

وما هى إلا أن رجعتُ أدراجى أطلب غدائى ، فأصبت منه قليلا وأنا ساهم أفكر ، وقضيت ساعة القيلولة يراودنى قلق ، ثم خرجت إلى النادى ساعة الأصيل ، ولكن لم يطبْ لى السهر فيه ، فرجعت إلى الدار أسأل الخادم : ألم يحضر أحد ؟

– لا ياسيدى . . .

وإذا لسانى ينطلق صائحاً :

لا ردَّه الله . . . كافر النعمة ، جاحد المعروف !

وبعد أن طعِمت قليلا من الحساء ، ونزْراً من الفاكهة ، تشاغلت وقتاً على مكتبى بالتصفح لبعض المجلات ، فكلما دب إلى سمعى دبيب شىء ، انتبهت له ، وكأنى أنتظر قدوم أحد .

وطالت جلستى إلى مكتبى ، وخاب أملى فى كل ما انتهى إلى سمعى من دبيب !

وما إن انشق عمود الصبح ، حتى كنت قد أقنعت نفسى بأن « وصفى » على عِلاته جدير بالرحمة ، فما يليق بى أن أجزيه إساءة بإساءة ، فإنه فى واقع الأمر جَهول أحمق ، والجهالة عذْر ، والحماقة داء !

وأقلتنى سيارتى إلى حىّ « مصر القديمة » أغدو على دار « وصفى »

فاقتحمتُ وكرَه ، وما كان أشدّ ارتعابى إذ رأيته ملقى على فراشه ، وهو فى حُلة الخروج ، وقد ملكتْه غيبوبة . . . فاستنجدت بالسائق ، واستبان لنا أن الرجل صريع خمر ، فأسعفناه ببعض المنعشات ، واحتملناه إلى السيارة ، وإذا هو يستقرّ فى دارى . . .

ورجعتْ إلى الصديق يقظتُه ، فانفرجتْ أجفانه عن نظرات كاسفة ، وهو يهمهم : أين أنا ؟ ماذا جرى ؟

فضاحكته أقول : لا شىء . . . علينا أن نعنىَ بطفلنا الكبير على الرغم منه . . .

فلاحت على فم « وصفى » بسمة عابرة ، وقال : حسبتُنى أصبحتُ فى عِداد الموتى . . . وارتحلت من هذه الدنيا !

فتعالى ضحكى وأنا أقول : الموت يتهيّب أن يمسّك !

ولما قدِم الطبيب يتفحص الصديق ، احتد فى حديثه معه ، وما زال يحذره وينذره ، حتى رأيت « وصفى » يتكمش حزين النفس ، مهموم البال !

وخلوت بـ « وصفى » بعد خروج الطبيب ، فمال علىّ يضغط يدى ، شاكراً لى عنايتى به ، على الرغم مما فرط منه .

وكان بديهاً أن أكون هذه المرة أشد رقابة للصديق ، وأكثر تعهداً له ، فلم أدعه يتناول مطعماً أو مشرباً أو يزاول شيئاً إلا طوع ما رسمتُه له من نظام !

وألفيته بادئ الأمر سهل القياد ، غير متضجر ولا مستكرَه ، ولكنه كان علىّ مر الأيام ، كلما أحس معاودة العافية له ، ثارت به جهالته ، وانتابته حماقته ، فحاول أن يرفع راية العصيان . . . إلا أننى حزمتُ أمرى معه ، ونصَبتُ فى وجهه يداً من حديد !

ووافقته يوماً فى البهو يخطو إلى الباب ، وهو مستقيم العود ، بادى النشاط ، فابتدرته أقول وأنا مبتسم : أهنئك بما بلغت من عافية . . . ولكن عليك ألا تخرج على تعاليم الطبيب ، فتكون النكسة ، وهى شرّ .

فنظر إلىّ نظرة ضيق بما أقول ، وزمّ لى شفتيه وهو يتفوّه بهذه الكلمات : لقد اتخذت منى أنت وطبيبك عبداً رقيقاً يساق كما تساق المطيّةُ الذلول . . .

— ما دمتَ بذلك تكسب الحياة ، فما أيسر الطاعة ، وما أهون الانقياد !

فربّت كتفى يقول : لك دينك يا سيدى ولى دين . . . الآن أستودعك الله !

— ألم نتواعد على الخروج إلى النادى معاً ؟

— لا رغبة لى فى الذهاب إلى ناديك !

— إذن إلى أين تذهب ؟

— إلى الطريق وكفى !

— من حتى أن أعلم أين وِجْهَتك ؟

فصاح محنَقاً : إلى جهنم . . .

فأجبته صائحاً : لا أدعك تفسد ما صلح من أمرك !

— ماذا تقول ؟ أمحجور علىّ أنا تفرض علىّ ما بدا لك ؟

— من أجل صحتك أفعل ما أفعل !

— لا شأن لك بصحتى .

— إنها حياتك تشرف بها على الخطر !

— هى حياتى لا حياتك ، أصنع بها ما أشاء .

فاشتد بى الحرَج مما أسمع ، وصرخت غضبان أسفاً :

سأعنَى بك على الرغم منك !

فارتجف قائلا :

لا أسمح لأحد أن يتدخل فى شأنى منذ الآن . . . علىّ نفسى !

واحتقن وجهه ، وانتفخت أوداجه ، واحتبست أنفاسه ، فتهالك على المقعد ، وأخرج من جيبه علبة تناول منها حبة ، ثم أخذ يروِّح وجهه بمنديله . . . فما إن رأيته على هذه الحال حتى أخذنى الرَّوع ، وسرعان ما تذكرت أن الطبيب كان أوصانى أن أجنبه بواعث الهيْجة ، فتقدمت منه مشفقاً به ، حانياً عليه ، وقلت له :

رحمة بنفسك يا صديقى . . . ماذا يدعوك إلى هذا كله ؟

وطلبت له بعض المنعشات ، واتخذت مجلسى بجواره حتى ذهب عنه الاهتياج ، واستقرت به الحال . . . ولبثنا حيناً لانتناقل من حديث ، وإذا هو ينهض ، فعلوت له ببصرى أستفسر ، فلم يعرنى من اهتمام ، وترك البهو مدبراً عن الدار ، وهو يدقّ الأرض بخطاه . . .

وتواردت أيام يزيد فيها صديقى من حريته فى التصرف ، مسرفاً على نفسه ، جانياً على صحته . وكنت أشهد ذلك منه ، وأنا فى حيرة من أمره ، فإذا اضطررْتُ إلى أن أقف فى سبيله ، وأردّه عن غيّه ، ألفيته قد احتد وهاج ، وأوشك أن تحتبس منه الأنفاس ، فلا أملك إلا أن أتنحّى عن طريقه ، خشية أن يقع به مكروه .

ولكأن « وصفى » قد عرف منى هذا الرفق به فى النصح ، واللين له فى الإشراف ، شفقة به ، وحذراً عليه ، فتمادى فى انطلاقه ، وأباح لنفسه ما لا يبيحه طب ولا علاج !

على أنى كظمت غيظى منه يوماً بعد يوم ، ، وما كنت أتوقع أن تبلغ به الجهالة والحمق هذا المبلغ من التعنت والعناد ، بل هذا المبلغ من الإلقاء بنفسه إلى التهلكة المحققة !

ومرة ألفيته بعد الفراغ من تناول الغداء ، يخرج علبة لفائف ، فيأخذ منها إحداها ، ويهم بأن يشعلها فى غير مبالاة . . . وكانت هذه أول لفافة يجرؤ على أن يجتذب أنفاسها أمامى جهرة ، فعددت

ذلك استطالة علىّ ، وتحدياً لى ، وإزراء بى ، ووجدت يدى تنبسط إلى اللفافة وإلى علبة اللفائف تجتذبهما من يده ، فتجهّم وجهه لى ، وقال : ماذا تريد أن تفعل ؟

فأجبته صارم اللهجة : أنهاك أن تدخن .

فمدّ لى يمينه يقول مُرْعَشَ الصوت : ردّ علىّ علبتى !

— هيهات . . .

— بل تعطينى إياها !

— لا أعطيك شيئاً ضرره لك محتوم . . .

فقفز من مقعده صائحاً بى : لن يكون لك بعد اليوم سلطان علىّ .. إنى تاركك إلى غير ملتقى !

فوقفت قُبالته آخذ عليه طريقه وأنا أقول : لا أدعك تخرج .

— افسَح لى طريقى وإلا ساءت العقبى !

— ماذا أنت مستطيع أن تفعل ؟

فدفعنى دفعة زحزحتنى عن موقفى ، وكدت بها أسقط ، وتركنى متجهاً إلى الباب ، فتمالكت وتماسكت ، ثم ما لبثت أن عَجِلت إليه أصدّه ، وأنا أصيح : لا أدعك تخرج !

— إنى خارج لا محالة . . .

واشتد بنا التدافع والصراع ، وأحسست « وصفى » كأنما قد استحال

نمراً ضارياً ينشب مخالبه فى عنقى ، فحملتُ عليه بما وسعنى من قوة وَجلد ، حتى أشبعته لكماً ولكزاً ، وفجأة ألفيته يخرّ على الأرض ، وهو ينتفض انتفاضة الطير الذبيح ، فعرتنى رجفة ، وجعلت أحدّق فيه مذهولا ، وأنا أصيح مستدعياً خدم الدار .

ولم يمض قليل من الوقت حتى كان صديقى ممدداً على سريره ، لا حركة ولا نأمة ، والزبد يطفو على فمه ، على حين كنتُ مهتماً باتخاذ ما أملك له من وسائل الإسعاف . . .

وحضر الطبيب ، وكانت منه نظرات أعلن على أثرها أن المريض قد انفجر فى رأسه شريان . . . فبرِق بصرى ، وتدانيت من الطبيب أستجديه عوناً ، فقال لى واليأس مرتسم على وجهه : لا حيلة للطبّ فى محتضَر ! . . . والأعمار بيد الله . . . لكل أجل كتاب !

لم أشيع جنازة « وصفى » ولكننى لم أقصر فى تعهد أمرها ، ولم أدخر وسعاً فى إغداق الخيرات ترحماً على صديقى فى يوم الوَدَاع . . .

ولزمتُ الفراش أياماً ، كسير الجسم ، تنوشنى آلام ، وتؤرقنى وساوس . . . ولما تماثلتُ شيئاً قصدت إلى مكتبى فإذا بيدى تنبش فى الدرج ، وإذا هى تَعْلَقُ بالصورة المعهودة ، صورة الأربعة الرفاق ... فجعلت أرنو إليها وقتاً ، ثم استقرت عينى على رسم « وصفى » فى

مكانه ، تالياً للرفيقين اللذين سبقاه إلى العالم الآخر . . .

وسنحت على فمى بسمة ناصلة . . .

واعجباه للقدر . . .

لقد أبى إلا أن يجعل من يدى أداة عمياء لتحقيق ما رسمه من ترتيب وتدبير !

وجرى قلمى تحت صورة « وصفى » يخط تاريخ وفاته .

واستشعرتُ غمامة تكسو عينى .

وألقيتُ الصورةَ تهوى من يدى . . .

"بوذا" الرحيم

صاحبنا أقرب خلق الله شبهاً بتمثال « بوذا » الإله . . . ذلك التمثال الذى يطالع عشاق الطرائف الفنية كلما ارتادوا أسواق التحف وحوانيت الألطاف . وإن هذا التمثال ليضرب على قوالب مختلفة ، ويصاغ حجوماً متفاوتة ، بينها الدقيق الضئيل الذى لا يكاد يبلغ ملء الكف ، وبينها الجليل الكبير الذى يزحم صدور الأبهاء والقاعات . ولكنه على الرغم من تفاوت حجومه واختلاف قوالبه لا يعدو شكله ، ولا تنسلخ عنه ملامحه وشياته . فهو هو : جسمان شحيم مترهل ، لا ساتر له إلا مزقة من ثوب ، وبطن يحتوى على كرش تنبعج حتى تندلق ، ووجه كروى متنفخ تغمره ابتسامة الطمأنينة والاستخفاف ، فى جلسة مسترخية كأنما ليس منها قيام...

كان صاحبنا أقرب شبهاً بذلك التمثال ، وإنك لتشهده جالساً تلك الجلسة المطمئنة ، مخلداً إلى جحر خرب تخلف عن بناء متقوض ، فلا تحسب إلا أنه نسخة من تماثيل « بوذا » الإله ، نحتت فى حجم إنسان سوى ، ثم ألقت بها المقادير اتفاقاً فى ذلك الكهف المهجور .

العين تأخذه أبداً فى مكانه لا يتحلحل عنه ، فهو منذ سنين ماكث فيه ليلَ نهار ، يتعاقب عليه القرّ والحرّ . وإنه ليتربع فى مجلسه ، وطيّات بطنه تتراءى كأنها موج باغته الجمود ، فاستقرت به الحال لا ينبسط ولا يتحرك . وإنه ليبقى دائماً فى وضعه ، يغمره فيض من الطلاقة والبشر . على شفتيه ابتسام مطبوع ، وفى عينيه بريق ساذَج ، وله من ذلك كله عتَاد يواجه به الزمن ، ويجابه الأحداث . ولم يكن لصاحبنا صوت يُسمعَ إذا تكلم ، وقليلا ما يفعل . . . فحديثه إن تحدث هَمس ، وضحكاته إن أطلقها رَمز . . . فلست تعرفه ضاحكاً بما يتعالى من قهقهته ، ولكن بما تلمح من طيات بطنه وهى تنساب فى توافق وانسجام !

ومن الناس فريق يعلمون من أمر هذا القعيد أنه كان فى سوالف أيامه عائل أسرة ، له فيها أبناء وحَفدة ، وأنه كان مذكوراً بحسن رعايته لأهله ، وبره بأطفاله ، فهو عليهم عطوف ، وهو بهم وَلوع . . . وأسفر صبحُ يوم مضى فيه الرجل يستودع التراب آخر مَن بقى من ذويه ، فقد فقدهم على تتابع الأيام . واستقبل الرجل ما أصابه بنفس راضية ، وأدّت به خاتمة المطاف إلى هذا الجحر الخرِب ، يقضى فيه بقية أنفاسه على ظهر الأرض . وما هى إلا فترة قصيرة ، حتى أضحى الرجلُ فى هذا الحىّ عميدَ أطفاله . . . فطنوا إلى ما طبعتْ عليه نفسه من رفق وحدب ، وألِفُوا ما ينعمون به فى مجلسه من أنس ومرح ، فكانوا يتوافدون عليه ،

منهم من يترجَّح على ذراعه ، وفيهم من يمتطى رقبته ، وبينهم من يتسلق كتفه . فإذا بلغوا مأربهم من التواثب والتصايح تخير كل منهم جانباً من الرجل يُلقى عنده رأسه ، ويسلم للنوم عينيه ، والرجل باذل لهم حنوّه ، مسبغ عليهم تعهده ، كما يبسط الطير جناحيه للأفراخ !

وكان الأطفال يُعنوْن بجمع ما تناثر فى أرجاء الحىّ من خِرَق وأوراق ، وإذا هم يلقون بها إلى الرجل ، فيصنع لهم منها ضروباً من الطرف عجائب ، تبعث فيهم البهجة والاغتباط . فهذا حمار تتدلى أذناه ، وذلك جمل يتعالى سنامه ، وهذه سفينة يخفق لها شراع ، وتلك عروس فى ثوب زاهية ألوانه . . .

وتوافرت للرجل عطايا الكرام من أهل الحىّ ، وكانت الأمهات أكثر حفاوة به ، وإغداقاً عليه ، فعاش مكفول القوت ، ناعمَ البال .

وآمن الرجل فى مستقره بأن لكل شىء آفة ، فقد أبى الدهر إلا أن يَرْميه بآفة ليس له منها خلاص . . . تلك هى بائع الفول المدمس الذى يقوم حانوته عن كثَب من الجحر . . . متى رأيت بائع الفول هذا ، حَضَرتْك على الفور صورة السمكة المقددة المملحة ، فى قوامها الضئيل الأعجف . . . إنه ليبدو خلف القِدْر جهماً عبوساً معروق الوجه ، غزير الحاجبين ، معقَّد الجبين ، لا يفتأ يزمجر ويزمزم لداعية ولغير داعية ، كأنه فى ذلك الحانوت عاصفة حبيسة لا تستطيع البراح !

كان بديهاً ألا يأتلف الرجلان : « بوذا » عميد الأطفال ، وبائع الفول العبوس ، فاستوثق بينهما تنافر كظيم كأنما هو بينهما سر دفين ! .. وكيف يأتلف روحاهما ، وذلك « بوذا » يتحلق حوله الأطفال صباح مساء ، على حين أن بائع الفول لا يطيق لطفل مَرأى ، ولا صبر له على ما يبدى الأطفال من تصايح ومعابثات ؟ ! . . . لقد عاش بائع الفول عَزَباً لا أهل معه ، ولا عهد له بتلك البيئة التى تُظلها حياة الأسرة ، ويَشيع فيها دفء التعاطف والتعاون والحنان .

والطفل مجبول على الكفاح والاقتحام ، وَلوع بالتغلب على من يحسبه خصما له ، فهو دائب المناوشة لمن يظهر له التنكّر ، ويبدى له العداوة والبغضاء . ومن ثَم كان أطفال الحىّ أحرص ما يكونون على أن يتوخوْا بائع الفول ، يعاكسونه ما وسعهم أن يعاكسوه ، وكلما ازداد الرجل انتهاراً لهم وإيذاء ، ازدادوا من تهجم عليه وعدوان .

فأما موقف « بوذا » مما كان ينشَب من هذه المعارك فهو موقف المرتقب الصموت الذى لا يفوته مما يحدث قليل ولا كثير ، ولكنه يتلقى ما يكون ببسمة غامضة تحجب وراءها مختلف المعانى والإحساسات . فإذا أصاب بائع الفول طفلا بسوء ، فزع الطفل إلى « بوذا » فى حُجره ، تسبقه دموعه ، فيلقى بنفسه فى حِضن وثير ينعم فيه بدفء الأبوة الشامل ، وحنانها السمح . . . وقد يمر بائع الفول بجحر « بوذا » ، فيرى الأطفال

حواليه أسراباً تتعلق به، فيبعث إليه بنظرة نكراء حامية ، ثم يبصق أمامه فى عنف ، ويحثّ قدميه فى تنفخ وكبرياء .

توالت المشاجرات بين الأطفال وبائع الفول ، واستحكمت بينه وبينهم حلقات النزاع ، حتى حدث ذات يوم أن ثارت ثائرة الرجل ، فرفع هِراوةً غليظة فى يده ، وأهوَى بها على رأس طفل شَغوب كان يتقدم جمع الأطفال ، فأحدثت فى رأس الطفل شجّة دامية ، تعالى منها صراخه . . . فاندفع إلى جحر « بوذا » يلتمس عنده الغوْث ، وكان هذا الطفل فاقداً أبويه، أثيراً عند « بوذا » ليتمه وفاقته ، فتلقاه بفيض من التحنن والإشفاق ، وأقبل عليه يُضمد جرحه ، ويوليه أكبر الرعاية والتعهد . ولم يكد الرجل القعيد يرى دم الطفل قانياً يسبح على وجهه ، حتى انكسفت ابتسامته المطبوعة، وحلت محلها سحابة من الكآبة والقطوب. وما لبث أن تراءى فمه تسرى فيه رعشة، وأسنانه من خلف شفتيه تصرّ . وعينه تختلس نظرة خاطفة إلى بائع الفول فى حانوته ، نظرة فيها شُواظ من نار !

وأمضى « بوذا » بقية يومه مطبق الجفنين ، يحسبه من يعبر به أنه قد ملكتْه إغفاءة ، ولكنك لو دققت النظر فيه للمحتَ على وجهه خَلجات تنتابه ، كأنها فُقاعات الهواء تَتبدى على مِرْجَل حَبيس يَغلى ويمور !

وفى جوف الليل البهيم خلا جُحر « بوذا » من صاحبه ، ساعةً أو

بعض ساعة ، ثم عاد الرجل إلى وكره ، يلملم كرشه ، ويجرّ جسمانه فى خطوات ثقال ، يريد أن يبلغ مأمنه قبل أن تُسفرَ عنه بارقة الفجر . وما لبث أن ألقى بنفسه فى الجحر مجهوداً يتنفس الصُّعَداء ، وسرعان ما أطبق عليه سُبات ، تسبح على وجهه ابتسامته الخالدة ، رمز الرضا والاطمئنان .

وفى رونق الضحى كان أهل الحىّ جميعاً يتناقلون النبأ المفزع ، نبأ مقتل بائع الفول فى حجرته القائمة خلف حانوته ، فتجمّع الناس بباب الحانوت ، يعلو بينهم اللغط ، ويذهب بهم الظن والتخمين كل مذهب ، وهم بين الفينة والفينة يشرئبون محملقين إلى الباب ، يحاولون أن يستكنهوا سرّ الأمر العظيم !

وتقاطر الشرطيون ومن إليهم من حُماة الأمن ، فى أرديتهم المتميزة ، وشاراتهم الساطعة ، وهم غادون رائحون يضربون الأرض بخطا مرهوبة لها وَقْع الإمرة والسلطة والتهديد . . .

وهنالك ، فى الجحر الخَرِب ، كان « بوذا » يتربع بجسمانه المترهل ، وجلسته المسترخية ، يتواثب عليه أطفاله ، وعلى محيّاه ابتسامته الرحيبة ، لا يُعنَى به أحد !

الفـأرة

كادت تُتم السابعة من العمر ، ولكن من يراها لا يعدو بها الرابعة ، فهى ضئيلة الشخص ، قميئة القامة . وهى دكناء البشرة ، إلى السواد أقرب ، والناظر إليها لا يدرى أذلك لون بشرتها حقاً ، أم هو ما يَعْلَق بها من غبرات ومقاذر ؟ ولقد زاد فى دُكنتها ما يجثم على رأسها من شعر شديد الفحومة مفلفَل جعد . وإنها لمهزولة الأوصال ، مصوّحة الأكناف ، حتى لتبدو أضلاعها بارزة خلف المزقة المرقعة التى اصطلح الناس فى تسامح على تسميتها بالجلباب .

متى سألها سائل : مَنْ أبوك يا صبية ؟ أجابت ساذَجة اللهجة ، فى خوف فطرىّ : لا أعرف . فإن سُئلتْ : مَنْ تكون أمك ؟ أمسكتْ بطرف مزقتها تفركه بين أناملها ، ناظرة إلى عُرض الطريق ، ملقية من عينيها الطافئتين نظرة شاحبة لا تفصح عن شىء ، وتغمغم : لا أعرف !

وربما أثارت إجابتها فضولَ السائل ، فأراد أن يُطيلَ معها الحديث ، فيقول : وأين تسكنين ؟ فإذا هى تشير بيدها المعروقة إلى بيت واهن يكاد يختنق فى زحمة الدور ، وتقول فى لهجتها الراتبة : هنا .

أجل ، هناك فى الشقة الأولى من شقق هذا البيت تقيم تلك الصبية ، لها مكانها المختار ، تأوى إليه كل عشية . . . وإنه لركن النفايات والفضالات خلف الباب ، على أرضه تلتمس راحة الجسد ، ومنه تطلق لأخيلتها الطفولية العنان .

وما كانت الصبية لتستطيع أن تظفر بهذه الراحة إلا بعد هدأة من الليل ، حين تفرغ من أعباء الخدمة التى تكلفها إياها سيدتها ربة البيت : عجوز عجفاء ، كأنها عود أيبس وانحنى ... وكانت امرأة شوه الله خلقها ، فبدت حامضة الطبع ، سبابة صخابة .

فأما الصبية فكانت تدعوها : خالتى . وأما العجوز فكانت تلقب صبيتها : الفأرة ! ولقد صادف هذا اللقبُ من جيرة الحى قبولا ورضاً ، فنوديت الصبية به ، حتى وعته واستجابت له ، وسرعان ما تزايل من ذاكرتها اسمها القديم ، مُدْرَجاً فى معالم حياتها الماضية .

أيكون لها ماض كما هو شأن كل إنسان ؟ أم تُراها نبتت فى هذه البقعة كما ينبت الطحلب الأخضر فى الماء الآسن على مقربة من البيت ؟ وماذا يعنيها من هذا كله ؟ وهى تجد فى ظل تلك العجوز الحيزبون كفافاً من قوت ، ولها اسم كسائر الناس تعرف به ، وإن كان هذا الاسم هو الفأرة . ولم لا يكون اسمها الفأرة ؟ وكيف يكون هذا الاسم بغيضاً إليها وهى لا تكره هذا الضرب من مخلوقات الله ، بل إنها لتعطف عليه ، منذ

استوثقت روابط التعارف والألفة بينها وبين فأرة صغيرة تشركها فى الشقة مكانها المختار خلفَ الباب . . . .

ولكل ألفة سبب ، ولكل تعارف بدء .

فى أمسيةٍ من الأماسىّ كانت الصبية فى ركنها منكمشة على حصيرها البالى ، وقد أخذ النوم يُرنّق فى عينيها ، وما هى إلا أن أزعجها دبيب عن كثب منها فى كُومَة الفُضالات. فأحدّت النظر ، وأرهفت السمع ، ولبثت تستبين الأمر على قلق ، وإذا الدبيب يشتد ، وإذا النفايات تتناثر ، وعلى شُعاعة واهنة من مصباح النِّفْط الأغبر المعلق على الجدار ، تجلى رأس صغير أسود تَبرُق فيه عينان على حَذر وترقب . فأدرك الصبيةَ الفزع ، وهمت أن تصيح ، ولكن لسانها اعتقل ، وصوتها اختنق ، وأوصالها شَلت ، إلا قلبها فهو يَرجف ، وإلا حدقتيها فهما ثابتتان ترمُقان رأس الفأرة المترنح .

وبرزت الفأرة من الكومة ، تنفض عن نفسها غبار الفُضالات ، ومدّت أنفها المستدق المنساب يتشمّم ، وشُعيرات شاربها تتذبذب وتتراقص ، وصادفتها كسرة عَفنة ، فأمسكتها بين يديها فى شغف ، ولبثت تَقرضها فى نهم ، والصبية فى مكمنها قابعة يصطرع بين جنبيها خوف وفضول ، وطغت عليها نزعة التطلع والتعرف ، فأورثتها شيئاً من السكينة ، فبقيت تنظر إلى الفأرة وهى مقبلة على الكِسرة تَطعَم منها ما تطعَم ، وندّت منها

حركة على غير قصد ، فوثبت الفأرة ملقية بنفسها فى رُكام الفُضالات وما أسرع أن توارت فى طواياه ، غير مبالية بالكِسرة التى لم تقضَم منها إلا القليل .

وسنحت على مُحيَّا الصبية مَخايل ابتسامة ، وانسرحت تفكر : أترى الفأرة خافت منها ؟ ألم تسرع بالفرار حين أحست وجودها ؟ . . . وياعجبا ! . . . أثمة كائن فى هذه الدنيا يخشاها ويحسب لها حساباً ؟

واسترسلت الصبية فى نجواها ، وعيناها لا تبرحان الكسرة العفنة ، لا مِرْيَة أن الفأرة تتضوَّر من جوع ، ولولا أنها كذلك لما أقبلت على هذه الكسرة ، وارتضت أن تتخذ منها مُضغة ، فعما قليل كانت الصبية نفسها تقلب وتنقب فى تلك النُّفايات المركومة ، بغية أن تصيب فيها شيئاً تتبلغ به ، شأنها كل عشية حين تحس عَضة الجوع ، فما صادفت فى ليلتها إلا تلك الكسرة العَفِنَة ، فلم تسوغْ لها نفسها أن تأكلها ، وآثرت عليها أن تَبيت على الطوى . فما لهذه الفأرة السارية لم تأنف أن تأخذ من الكسرة قضمة بعد قضمة ؟ إنها إذن لأشدّ من الصبية مَسغبة ، وأحوج منها إلى زاد .

ولكن ما بال تلك الفأرة الصغيرة تمضى بنفسها يَمنة ويَسْرة لتبحث عن طعام ؟ أليس لها أم تكفلها فتكفيها مَئونة البحث والتفتيش ؟ إن الصبية لتعلم مبلغ عناية الأمهات بأولادهن ، فهن يَسعين إليهم بالطعام ،

بل إنهن ليُطعمنهم بأيديهن إطعاماً وإن كانوا على شبع . . . الفأرة الصغيرة حتما لا تعرف لها أباً ولا أمّا ، كشأن الصبية سواء بسواء . وإن هذه الفأرة لينال منها الجوع ، فتنقب فى الفُضالات عن شىء يُمسك الرمق ، مثلما تفعل الصبية سواء بسواء ، فما أشبه الحال بالحال ! . . . ولبثت الفأرة الإنسانية مستغرقة فى نَجواها وقتاً ، حتى ترنح رأسها ، فاستلقتْ على مرقدها تستكمل النجوى فى مرتع الأحلام .

وشُغلت الصبية فى غدها بما يُلقَى عليها من أعباء خدمة البيت ، واستوفت حظها مما تخصها به سيدتها الحيزبون من صَفع وركل وسِباب .. وفى العشيّة أطلق سراحها ، فلاذت بركنها خلف الباب ، وتَمددت إلى طيات ثوبها تخرج من بينها لقَيْمة ألقت بها فى الزاوية التى لمحت فيها فأرة الأمس ، وتمددت على حصيرها ، ولكن لم يَغمض لها جفن ، وظلت قلقة أرقة ترهف السمع وتحدّ البصر .

وبعد حين سرت فى قلبها رجفة ، إذ تناهت إلى سمعها نأمة . وما هى إلا أن تجلى الرأس المنساب يتشمم فى محاذرة ، وشعيرات شاربه تتراقص ، ولم يطل بالفأرة البحث والنكث ، فقد وجدت اللقيمةَ منها قريبة المنال ، فأكبتْ عليها تُعمل فيها قوارضها منهومة شَرِهة ، والصبية رانية إليها فى اهتياج مشبوب ، وملء نفسها نشوة وارتياح . . . لقد استطاعت أن تبلغ مأربها من إطعام الفأرة الجوْعىَ !

وطاب للصبية أن تشهد الفأرة وقد أتت على اللقيمة لم تترك منها فتيتة ، فما أسرع أن قذفت لُقيمة أخرى أصابت هدفها أمام الفأرة ، فنكصت الفأرة على عقبيها يملكها الذعر ، ولكنها ما عتمت أن عادت تعكف على اللقيمة فتعمل فيها قوارضها تفتيتاً وقضما ، على حين ترسل من عينيها البراقتين إلى الصبية نظرات حذر واستطلاع ، والصبية رانية إليها وهى فرحانة طَروب . . . واستوت الفأرة على ذيلها تمسك بما بقى من اللقيمة بين يديها الدقيقتين ، وكأنها تحاول أن تطيل أمد المتعة بالطعام . . . وما كان أروعه من مشهد استخف الصبية ، وبعث فيها هزة وغبطة ، فبدرت منها ضحكة ما كادت تبلغ سمع الفأرة حتى سارعت إلى الفرار .

فعاجل الصبية أسف ممضّ ، وراحت تسأل نفسها : أكان اختفاء الفأرة عن غضب ؟ أترى الفأرة أحست أن الصبية تسخر منها ، فأنفت أن تكون مَثار سخرية ؟ أم تراها استخفتْ بباعث من خوف ، إذ أساءت بالصبية الظن ، فتوقعت أن يكون منها أذى ؟ . . . مخطئة هذه الفأرة فى كلتا الحالين ، فما سَخِرَت منها الصبية ولا أضمرتْ لها الشر . . . ألا ليت الفأرة تعلم كيف تشفق عليها الصبية وتوليها صفوا من ود وإيناس !

وتواردت الأيام ، والصبية لا تفتأ تبذل جهدها فى ابتغاء مرضاة الفأرة النَّفور ، وتوكيد ما تحسّه لها من ألفة وحب . . . لقد استبانت لها وشائج تربطها بهذه المخلوقة الصغيرة ، فى حياتهما مَشابِهُ واضحة ، وفى نصيبيهما

من العيش تماثل مشهود !

طاب للصبية أن تقضى فى صحبة الفأرة هزيعاً من الليل ، ولشدّ ما كانت تستشعر السعادة الحقة فى تلك السهرات الأنيسة ، والدار من حولها فى وحشة وحلكة وصمت . ما أجزله تعويضاً عما تلاقيه فى يومها الأطول من شقوة وعناء فى خدمة سيدتها الحيزبون ، ذلك العود اليابس الأعوج ، ذلك العظم النَّخِر الذى يكسوه جلد شائه . . . كيف تزجى الصبية ساعات يومها الأنكد ؟ إنها لتلبث فى الدار تصعد درجها وتهبط ، وتجول فى أرجائها وتدور ، لا هوادة ولا قرار . . . شبيهة هى بالدوّامة التى يلهو بها الأطفال ، تلك الهناة التى يلفّون عليها الخيط طاقات ، ثم يجذبون خيطها فى شدة ، على حين يقذفون بها على الأرض ، فلا تفتأ تدور حتى إذا فترت عن الدوران انهال عليها السوط يلهبها فتعود دائرة ، وما يزال أمرها كذلك حتى يسأم الأطفال ، فيتركوها صريعة الإعياء . . . أليست هذه الصبية دَوّامةً حيّة ، تتقاذفها السياط الآدمية من سُكان البيت ، وعلى رأسهم سيدتها الحيزبون ؟ فكيف لا تحس دَوّامة البيت بَرْدَ الراحة والدعة فى صحبة الفأرة الحبيبة ساعةً من ليل ؟!

كانت الصبية تَدَّخر من طعام اليوم ما يتسنى لها أن تدخر ، أهبةً لذلك اللقاء الليلىّ البهيج ، فإنها لَيلذّ لها أن تَطعمَ ، وعن كثَب منها أليفتها الصغيرة ، تلقى إليها فى الفينة بعد الفينة فُتاتاً مما تأكل ، فإذا هما

تتطاعمان فى هناءة واستمراء .

وعلى مدّ الأيام استوثقت بينهما المودة ، فلم تعد الفأرة تخشى من الصبية سوءاً ولا أذى ، وإنها لتتدانى منها لتصيب مما بين يديها من طعام ، وإنها لتسرح أمامها وتمرح ، وتقفز هنا وهنالك لاهية عابثة ، كأنها ألعبان يعرض على المسرح طريف معابثاته ، ليغنم رضا جمهوره ، والصبية تسايرها بعينيها فى بشر وابتهاج ، فإذا قضت الفأرة مأربها من اللهو واللعب ، قبعت غير بعيد من صاحبتها تحدّق فيها بعينين براقتين ، وشاربها يهتز ، كأنها تقول لها : لقد قدمت لك ما عندى ، فهل عندك من شىء تقدمينه إلىّ ؟ وثمة تستوى الصبية على حصيرها فى طمأنينة وارتياح ، وتسامر الفأرة بما شاءت أن تسامرها به من قصص ونوادر وأفاكيه ، طوراً تستعين ذاكرتها فتنفض ما وعته مما وقعتْ عليه عينها من أحداث ، أو اقتنصته أذنها من أحاديث ، وتارة تستدرّ خيالها الساذَج ، فتبنى به أبراجاً عالية فى دنيا الأحلام ، تصوغ فيها ما تستقبل من أيام .

على هذا النحو توالت الأماسىّ بالصبية فى متعة وصفاء ، حتى كان يوم استدعتها فيه سيدتها الحيزبون ، وطلبت إليها أن تصعد من فورها إلى الطبقة العليا من البيت ، لتقوم على تمريض جارة قعد بها المرض ، ولا تجد من عون . ولم تملك الصبية إلا الطوْع ، وكانت الجارة تشكو داء المفاصل ، لا تستطيع أن تبارح مرقدها البتة ، وإنها لتتقلب على فراشها

فى عُسر ، فكأنما شُدت إليه بمسامير غلاظ نشبتْ فى العظام واستقرت ، فهى تتلوى ، مرسلةً الآهة فى إثر الآهة ، والصبية حيالها شاخصة البصر إلى وجهها المتقلص ، تدوّى فى أذنها صيحات التوجع والضجر . فإذا أدركت المريضةَ إغفاءة ، وانقطع الصياح والتأفف ، وتزايلت الحركة فى الحجرة ، أحست الفتاةُ وحشة طاغية ، وساورتها خشية وذعر . وكثيراً ما خامرت الصبية شكوك وأوهام ، إذ ترى أمامها سحنة ممتقعة تتزاحم فيها التجاعيد ، وشحوباً شديداً عليه سيماء المرارة والعذاب وعينين تنفرج أجفانهما شيئاً فيبصّ منهما شعاع كاسف هزيل ، وفماً فاغراً نافر الشفتين تهبّ منه أنفاس مبهورة كأنما هو شِقّ موحش ينبعث منه فحيح . . . فتسائل الصبيةُ نفسها : أتراها بين يدى مُحتضرة تنتظر من يُدلى بها إلى غيابة القبر ؟ أم تُراها فى حضرة جنية أفلتتْ من عالم الرهبة والسحر ؟ وإن الصبية ليعتلج فى دخيلتها دافع الهرب ، ولكنها تجد نفسها مشلولة الحراك ، لا تملك الفكاك !

وأكبر ما كان يشغل الصبية أنها قد فارقت أليفتها الفأرة ، وأنها قد تخلفت عن مواتاتها بالطعام كل عشية . ترى هل تُسىء الفأرةُ بها الظن ، فترد غيبتها إلى الإهمال والنسيان ؟ أم تراها عليمة بما يجرى فى الدار من أحداث ، فتلتمس لها عذراً فيما كان ؟ . . . وطالما حاولت الصبية أن تتسلل فى جنح الظلام إلى مثابتها المعهودة ، لتلقى رفيقتها الحبيبة ، وتقدم

لها ما يتيسر من مأكل ، وتقضى معها فترة تتناجيان وتسمران ، ولكن المريضة كانت تحيا حياة الخفافيش : سهد آناء الليل ، وَغفوات أطراف النهار ، فلم تفلح الصبية فيما رَصَدتْ من فرصة ، ولم يُتَح لها أن تتفلت ، وظلت موصولةً بمضجع المريضة تنشد الخلاص ، ولاتَ حينَ مَناص !

وبكرةَ يوم ، والصبية على حالها بجوار المريضة ، إذ صافح سمعها فى الدار جلبة وعجيج ، وَهرْج ومرْج ، فلبثت تترقب وتتسمع ، وإذا هى تغادر الحجرة واثبة تتطلع ، وأطلت من مَسقط الدرَج فرأت فى أسفل الدار جمعاً من السكان والجيران ، أكثرهم أطفال تعلو أصواتهم الرنانة على سائر الأصوات ، وتطغى جلبتهم على جلبة الرجال والنساء ، واستطاعت الصَّبيَّة أن تتصيد كلمات تردّدها سيدتها الحيزبون :

لقد أمسكتُ بك أيتها الشَّغوب . . . لن تفلتى من يدى !

وما هى إلا أن تهاوت الصبية على الدرَج ، يستبدّ بها باعث من فضول ، واستبان لها الحشد المتدافع ، وتوضحت لها كلمات السيدة الحيزبون ، وهى تقول : لم تدعى لى ثوباً إلا أتلفتيه ، ولا طعاماً إلا سطوت عليه . . . لتلقين جزاءك يا شقية !

وارتقت إلى سمع الصبية صَأصَأة ليست على أذنها غريبة الوقْع ، صأصأة ذهبت أصداؤها فى ضَجة من التضاحك والصياح .... وانتظمت الصبية رعشة ، وحثت خطاها إلى منتهى الدرَج ، وكان الحشد قد زايل

الدار إلى الحارة ، وارتد خلفهم الباب ، فمثلت الصبية وراءه تسترق النظر من خصاصه ، وما عتمت أن فتحته ومضت خارجة ، وانفرجت ثغرة فى الحشد الملتف حول السيدة الحيزبون ، فنفذت الصبية من الثغرة فإذا هى تلمح فى يد سيدتها مديدة تضطرب فيها هناة سوداء لا يقر لها قرار ، تصدها أسلاك المصيدة كلما تلمست وجه الفرار .

واشتد بالصبية الاهتياج ، واستشعرت قبضة من حديد تضغط رقبتها فتخمد منها الأنفاس ، وسرعان ما اندفعت تشرئب وتحد بصرها فى المصيدة لتستبين الأمر على جليته ، وشقت الزحمة صوب السيدة الحيزبون ، فواجهها على الفور رأس دقيق ، وعينان تزهران ، وشارب يهتز ، وكان الرأس أشعث الشعر دامياً لا تكاد معالمه تتجلى . . . . وتلاقت النظرتان : نظرة الصبية ونظرة الفأرة . واسترعى انتباه الصبية أن الفأرة قد أمسكت عن اللف والدوران خلف الأسلاك ، وأقبلت عليها تحدق إليها ، وسمعتها الصبية تعلو بصأصأتها فى لهفة المستغيث ، فألقت بنفسها هاجمة على المصيدة فى تهور ، ولكن الجمع أحدقوا بالسيدة الحيزبون ، فاستخفت المصيدة عن عين الصبية ، وظلت صأصأة الاستغاثة تتردد أصداؤها فى ذلك الجو المختنق !

وانبرى صوت الحيزبون يقول : هاتوا النفط لنشعل النار فى هذا الحيوان النجس . سنطلقه مشتعلا فى الحارة . منظر شائق يا أطفال !

وتبادل الأطفال صياح التهلل ، والصبية مخلدة إلى باب الدار ترتجف ، والدمع من مآقيها يَسُحّ .

وامتدت يد إلى الحيزبون بزجاجة النفط ، فقطرتْ منها المرأة على جسد الفأرة قطرات ، وصاحت وهى تَقدَحُ عود الثقاب : أغلقوا أبوابَ الدور ، حتى لا تَسرُبَ الفأرة إلى إحداها فتصيبها النار .

وأغلقت الأبوابُ على الأثر . . . وشاهد الحشد كرة من النار ملتهبة تنطلق من المصيدة فى شُرود وجموح ، والصبية بجوار الباب تلاحق الكرة بأنظارها ، وكأن قبسة من النار قد أصابتْ جسدها فأضرمت فيه اللهب . . .

وأبصرتْ الصبية كرة النار تتجه صوبَ الدار ، فامتدت يدها على الفور تدفع الباب ، وما أسرع أن مَرَقت الكرةُ منه ، فتبعتها الصبية ، وتعالى صوتُ السيدة الحيزبون بالسِّباب والوعيد ، وتحاملت على نفسها تدفع بخطاها ما وَسِعَها أن تدفع ، وما إن دخلت حتى ارتدّ الباب خلفها مقفلا .

وَسرَتْ فى الحشد سارية من الذعر ، فتجمعوا حول الباب يحملقون ، وقد انعقدت ألسنتهم فى حلوقهم لا ينبِسون . وارتفعت الأصوات دفعةً واحدة تصيح :

النار تأكل الدار !

وتقدمت امرأة تجرّرُ ملاءتها وتقول :

إياكم أن تقربوا الدار . . . ليست هذه الفأرة إلا حيواناً مسحوراً يتلبس بجسده عفريت من الجن الأحمر !

فشاعت فى الجمع همهمة مفزعة ، واشتد فى الدار اندلاعُ النار ، وارتجّت فيها أصوات الاستغاثة ، دون أن يجرؤ أحد على أن يقترب .

وَتلظتْ النار تزأر ، فيردِّد زئيرَها الفضاء !

هَنـاء

كان فى غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان ، سلطان عظيم الشان ، شديد العسف والطغيان . . . عاش قوىّ الشوكة ، عظيم الصولة ، ذا بأس وجبروت ، مَشْغلتُه الحربُ تلو الحرب ، وهمه الفتحُ بعد الفتح . . . وكأنما خُلق بلا قلب ، أو لكأن قلبه لا تسرى فيه عاطفة ولا يخفق فيه حب . . . فى قصوره الباذخة مقاصير تحفل بالجوارى الفاتنات ، لم يكن يجد لهنّ فى قلبه هوى ، فهنّ عنده أشبه شىء بسحائب الصيف ، لا غيث فيها ولا رىّ . وكلما ازداد السلطان من مجد وجاه ، تقطعت نفسه حسرات ، إذْ يرى حياته شجرة مصوّحة ، ليس لها من ثمر . . . لقد كان عقيما ، لم يشهد له ولداً ، فكان يستشعر الوحدة والوحشة ، وتتراءى لعينيه أشباح الفناء . . . وعلت السن بالسلطان ، واشتعل رأسه شيباً ، وهو ما برح من عُقمه فى جدب وجفاف ، لا تكتحل عينه بمرأى طفل له ، ذلك الغرس الذى ينضّر الحياة ، ويجدد الأمل ، ويعيد عهد الربيع . فلا يجد السلطان فرجاً من ضيقه إلا فى حَوْمة الوغى ، يُقحم نفسه فى قتال إثر قتال .

ووقف القدر فى مَرْ قبته العالية ، يرْصُد ذلك السلطان فى مغامراته ومخاطراته ، وقد استهواه شأنه ، واستثار شغفَه ، ففرغ له يُوليه نظرة الاهتمام . . . وتطلع القدر إليه بوجهه الأشهب المخروط ، وهو يداعب لحيته الحريرية الناصعة ، يفتل شعراتها بأطراف بنانه ، كأنه يُدير منها مغزلا يستخرج منه خيوطاً دقيقة بالغة الدقة ، متينة شديدة المتانة . وما إن تجمعت فى يد القدر طائفة من هذه الخيوط ، حتى قذف بها فى الهواء ، فتناثرت شباكاً ما لبثت أن هبطتْ على فتاة تقتنصها فى رِفق . . . وتهادت الشبكة بما حملت من صيد تقصد مستقرّ السلطان ، فإذا هى تضمه إلى الفتاة جنباً إلى جنب !

كانت فتاة القدَر مغمورة الأصل ، غير نابهة الذكر ، بيد أنها موفورة الحظ من وسامة وحسن ، فتعلق بها السلطان أيما تعلق ، وفتح لها مغاليق ذلك القلب الأغلف الذى لم يلنْ من قبل ، واتخذها معه شريكة له ، فكانت سلطانة لا تدانيها فى مكانتها المرموقة امرأة . . . وأقبل عليها السلطان يهبها وقته كله ، وانصرف عن تدبير المعارك وخوض المعامع إلى مساقاة زوجه كأس الهناءة ، ومطارحتها متعة الحب والهيام . . . ولقد طابت نفس القدر بهذه الألعوبة الطريفة التى أحالت « سلطان الزمان » حليف هوى ، وصريع افتتان ، فلمعت على محيّا القدَر ابتسامة غريبة تنطوى على سرّ . . .

وانتهى إلى علم السلطان ذات يوم أن زوجه قد أصبحت ذات حمل ، فاستخفه الفرح بهذا النبأ ، وازداد لحسنائه من حفاوة وتنعيم . وترادفت الأيام ، و « سلطان الزمان » يتأهب لاستقبال وليده المرتقب بما هو أهل له من ترحيب وإعزاز . واحتبس الرجل فى مقصورته يوماً يعرِض مختلف الأسماء ، ليصطفى من بينها اسماً كريماً لذلك الوليد المحظوظ ، فوقع اختياره على اسم « هانئ » ، ولا غرو أن يسميه « هانئاً » وهو الذى يتقدّم رمز هناء لأبيه وأمه ، وبشرى سعد للرعية أجمعين . ليكونن هذا الوليد بدءاً لعهد جديد تنعم فيه بلاد السلطان بظل وارف من رفاهة ورخاء .

وقد استيقن الأب أن وليده لن يكون إلا ذكراً . . . وكيف لا يُرزق سلطان السلاطين غلاماً يتلقى رايةَ المجد من أبيه ، فيقفوه ويحتذيه ؟ وأراد السلطان أن يتخذ للأمر عدته ، قبل وقته ، إمعاناً فى التحوّط ، فراح يستشير الكبراء والقادة ، وهو يرْسُم لوليده خُطة تنشئة ، ودستور تربية ، حتى يشبّ الوليد مثلا عالياً لشجاعة النفس ، وعلو الهمة ، وابتناء العظائم . . .

وكرت الأيام لا يفتأ فيها القدَرُ راصداً لبيت السلطان ، وعلى فمه ابتسامته الغامضة ، ترفّ ولا تشف عن السر الدفين !

ووضعت السلطانة حملها ، فكان أنثى . . .

وهبط النبأ على رأس السلطان مهبط الصاعقة ، فأمر بنقل الزوجة

إلى مكان من القصر بعيد ، ولم يشفع لها ما كان بينه وبينها من حب مكين ، وودّ صميم . وأبى السلطان أن تقذَى عينه بمرأى تلك الأنثى التى تطفلت عليه ، تنعىَ ما أمل ، وتسخر مما دبر .

وواصلت الأيام سيرها الدءوب . . . وتذكر « سلطان الزمان » أيام هناءته فى كنَف زوجته ، وعبرت قلبه سانحةٌ من حنين ، فرغب فى أن يقصد إلى تلك الأم المغضوب عليها بلا جريرة ، ليرى طفلته فى كنفها ناعماً بهما ساعة من نهار . وفيما هو يجتاز وحيداً دهاليز القصر الممدودة المعتمة ، متوخياً ذلك الجناح القصىّ الذى نُفيتْ فيه زوجه ، تجلى له وجه أشهب مخروط ، ذو لحية حريرية ناصعة ، كأنها مغزل ، وابتسم الوجه يقول : على رِسْلك يا « سلطان الزمان » !

فشُده السلطان ، وجعل يحدق فى الوجه البادى حياله ، وشدّ يده على مقبض سيفه ، فتابع الوجه الباسم قوله : أنصتْ إلىّ ، لعلك منتفع بما أنا قائله . . . إنّ طفلتك آية ملاحة وجمال ، ولكن يعوزها شىء لا بد منه . . .

فاشتدت ذهلة السلطان مما رأى ومما سمع ، وأطال تحديقه إلى ذلك الوجه ، وهو يهمهم : ماذا يُعوزها ؟

— الإبصار . . . إنها عمياء !

وأسرعت يد السلطان إلى السيف تستله من غمده ، وتُهوى به على

ذلك الوجه ، ولكن السيف ارتطم بالجدار ، فارتدّ مثلوماً ، ولم يبق من الوجه إلا بريق نظرات تتزايل ، وأصداء ضحكات تتضاءل ، فلبث السلطان هنيهة يتلفت حوله ، والهيْجة آخذة منه كل مأخذ ، وخطر بباله أن ما شهده الساعة ليس إلا ضرباً من عبث الشياطين ، بل لقد ذهب به الظن إلى أنه لم يكن إلا وهماً من الأوهام . وأراد أن يتابع خطاه إلى مخدع الوالدة ، ولكنه ألفى قدميه تعودان به القهقرى إلى مقصورته . . . وما هى إلا أن جعل يتعرف ويتقصّى ، حتى استبان له أن الحقيقة ما أفضى به ذلك الوجه الذى صادفه فى الدهليز .

يا لها داهية دهياء ! أتكون ابنة سلطان السلاطين فاقدة البصر ؟ وبلغ منه التغيّظ والالتياع أشدّ مبلغ ، فألقى أمره إلى حاشيته أن ينقلوا الزوجة إلى جَنَاح الخدم ، فقد ضاق « سلطان الزمان » ذرعاً بتلك المرأة التى فقد على يديها أمله المنشود ، والتى تمخضت عن طفلة عمياء يلقى منها سُبَّة الأبد ، ويشقى بتعيير الناس !

وكرت الأيام تلاحق الأيام . . . وتناثرت إلى السلطان طرائف أنباء تتواصَفُ ما منح الله تلك الوليدةَ من بهاء وفتنة . . . ويوما شعر السلطان بأن ذلك الصراع الناشب بين كبريائه وبين عاطفته لزوجه وابنته قد خبا أوَارُه شيئاً ، فحثّ خطاه إلى مخدع الوالدة فى مستقرها القصىّ . وبينما هو يعبر الدهاليز الممدودة المعتمة ، إذ اعترته رعشة ، وما هى إلا أن لمح

ذلك الوجه الأشهب المخروط ، فى لحيته الحريرية كأنها مغزل . . . فأمسك عن السير تملكه الدهشة ، ويعصف به الغضب ، وصاح قائلا : أنت ؟

فأجاب الوجه رزين اللهجة ، وعلى ثغره ابتسامته الغامضة :

أنا . . . أنا دائماً . . . جئتك اليوم أحمل إليك نبأ يا له من نبإ !

فأعلى السلطانُ صوته يقول :

اغربْ عن وجهى ، فلستُ إلى أنبائك بحاجة .

— إنه لنبأ عظيم ، وأنت إلى معرفته مفتقر ، ولكنه نبأ ينطوى وأسفاه على معرة وخزْى !

فالتمعت عين السلطان تقدح ناراً ، واهتزت يده على مقبض سيفه ، وصاح : سُحْقاً لك يا روح إبليس ، تجنب طريقى !

— لا أتجنب طريقك حتى أفضى إليك بما عندى من نبإ . . . أواثق أنت يا « سلطان الزمان » أن طفلتك من صُلبك !؟

وجرد السلطان حُسامه يَشهَره فى ذلك الوجه الوَقاح ، وهو يقول : بأىّ فرْية تلغطُ أيها الكاذب الأفاك !

— لا أفترى عليك الكذب ، ولكنى أكشف لك ما خفى عنك . أنىَّ لك أن تُعقب وأنت عقيم ؟ !

وغامت الدنيا لعينىْ السلطان ، وتداعت قُواه ، وكاد يسقط ، لولا أنه أسند ظهره إلى جدار ، وراح يَدْلُكُ جبينه ببطن يده ، فسمع

الوجه يقول وهو يتوارى عن عينه ، كأنه دخان يتخلخل فى الفضاء :
عالجْ أمرك بحكمتك ، وجانب التهوّر والنزق .

وثاب السلطان إلى رشده ، فرجع يهرع إلى الردهة الكبرى يضرب الصَّنج ، ويزأر زئير الأسد الهصُور ، فركض إليه الوزراء والكبراء والأعوان مذعورين واجفين ، فأصدر السلطان أمره الحاسم الصارم أن يضعوا السيف فى تلك الزوجة وابنتها ومن يلوذ بها من رجال ونساء ، أقربين وأبعدين !

وما كادت المذبحة تبدأ ، حتى كان « سلطان الزمان » فى ذمة المنون . فلقد أودت به تلك الهيجة العارمة التى أطارت لبه كل مطار .

وتقلد المملكة شقيق لسلطان الزمان الراحل ، كان على خلاف مذهب أخيه فى الحرب والضرب ، والغزو والفتح ، فأقصاه أخوه فى منفى بعيد ، عقوبة له على الاعتراض والانتقاض . . . فلما تولى الأمر بعد وفاة أخيه ، أبى إلا أن يبسط ظلال العفو والإحسان ، فوقف المذبحة ، وردّ المظالم ، وكان بالناس أخاً رفق ومرحمة . . . ويوماً ، وهو فى مجلسه ، يفصل فى أقضية الخصماء ، استأذنت عليه امرأة بين يديها لفيفة ، وما هى إلا أن وضعتْ لفيفتها عند قدميه ، وصاحت تطلب منه الأمان ، ثم قالت وهى تولول : ما ذنب هذه الطفلة العمياء فيما جرى من المآسى الفاجعات؟
فأجابها السلطان الجديد : من تكون هذه الطفلة ؟

فقالت وفى صوتها رعشة : إنها « هناء » . . . بنت أخيك السلطان !. لقد لقيت أمها حتفها فى غمار المذبحة ، وقد استطعت أن أنجى الطفلة من القتل دون أن يشعر أحد .

وأزاحت اللثام عن محيّا الطفلة ، فسطع ضياء ألاّق تبعثه عينان زرقاوان فاتنتان !

فهمهم السلطان : تبارك الله أحسن الخالقين . . . لحكمة استأثر بها علمُ الله ، نجتْ هذه الطفلة من يد القتل !

وخفض بصره ، وقد طوّحت به الأفكار ، ثم رفع رأسه يقول للمرأة حاسم اللهجة : لاتصابُ الطفلة بأذى ... لأهبنّها ما يكفلُ لها معيشة الرخاء والرغد ، ولكن يجب ألا تبقى فى أرجاء السلطنة ، مهما يكن من أمر ، فإنها ذكرى بغيضة لعهد بغيض !

وأمر السلطان بأن تُعدّ للطفلة وحاضنتها دابة محملة بألوان المئونة والزاد ، وأن تُكفل حمايتها حتى تغادر تخوم المملكة فى طمأنينة وسلام .

وتقاذفت الأصقاع تلك الدابة بما حملت ، والطفلة على صدر حاضنتها تتفتح للحياة . . . وبعد لأى بلغت الحاضنة بقعة تتجافى عن العمران فى سفح الجبل ، فآثرت أن تتخذها مستقراً لها ومقاماً ، حتى تكون بمنأى عن مزدحم الناس . . . لم يكن بهذه البقعة من أنيس ، وإنما هى أرض بكر ، وغابة عذراء ، تترامى فيها المروج الخضر ، ويخترقها نبع سلسال ،

فيها يستطيع الإنسان أن يجد الظل والثمر ، فيحيا حياة الطبيعة الخالصة .

أقامت الحاضنة كوخها على أديم هذه البقعة بين العرائش والغصون ، وعكفت على ربيبتها تحسن تنشئتها ، وتوليها موصول التعهد والرعاية . . .

وكانت هذه الحاضنة خبيرة بالحياة ، وافرة المعلومات ، على فطنة وألمعيَّة ، يعمر قلبها إيمان نقيّ ، لاتكلف فيه ولا مصانعة ، فأقبلت على الطفلة تبثّها ما طُبعتْ عليه نفسها من كرائم السجايا والخصال . وكانت فى كثير من الفترات تجلس إليها تُفتّقُ عقلها بمختلف المناقشات والمحاورات ، وتوسّع مداركها بما لها من خبرة ورأى ، وفوق ذلك كانت تزوّدها بحكمة العصور ، وأحداث التاريخ ، كما كانت تقص عليها أمتع القصص الحافلة بالأساطير ، تفكهة لها وتسلية .

درجت الطفلة على أرض الغابة ، كأنها جزء منها أنبتته الطبيعة التى أنبتت ما حوت هذه البقعة من أيْك وغصون . . . وازدهرت الصبية على السنين بهية ناضرة ، تستشعر السعادة فيما يحيط بها من وسائل وأسباب .

وحان يوم عرفت فيه الطفلة أنها تفقد شيئاً يتوافر لأكثر الناس ، ذلك هو الإبصار . . . بيد أنها كانت تعجب لهذا الشىء الذى تفقده ، ولاتدرك له من كُنْه ، ولاتحس إليه من حاجة . فأى شىء هذا الإبصار ؟ وماذا يمكن أن يضيف إلى ما تنعم به من رفاهية واستمتاع ؟ إن الفتاة لتتقلب فى أرجاء الغابة يَمْنة ويَسْرة ، وإنها لتجوب السهول وتطوى المروج

وترتاد الخمائل ، وإنها لتغترف من النبع إذا ظمئت ، وتسبح فيه ما طاب لها أن تسبح ، وإنها لتحسّ دفء الشمس فى ضحوة النهار ، ورخاوة النسيم فى فترة الأصيل . . . ومنذ اشتد عودها ما فتئت تقفز هنا وهنالك فى طرب ومرح . فهى دَرِبةٌ بمسالك البقعة ودروبها وما فيها من ليّات ومعاطف ، لا يعتاقها منها شىء . . . ولطالما تحدثتْ إلى حاضنتها فيما اهتدت إليه من طوايا البقعة ، فكانت الحاضنة تسائل نفسها : كيف أن بصرها لم يبلغْ ما عرفته هذه الصبيةُ العمياء ؟ !

وكان شأن الزهر مع « هناء » أنها لا تكاد تلمسه أو تستنشى نفحته ، حتى تميز بينه على اختلاف الألوان والصنوف . فما كان يعزّ على الصبية أن تحس روعة الزهر وجماله ، فتكلف به ، وتقطف منه ما يروق ، فتنسقه طاقات نواضر تحلى بها صدرها ، وتزين كوخها الوديع . وقد أفضت إليها الأعشاب بأسرارها ، لطول الخبرة ، وتتابع التجربة ، فإذا الفتاة تفيد منها أكبر ما تفيد .

وما أعجب شأنها مع ساجعات الطير . . . لقد أصغت إليها شادية على الأفنان متناجية ، فحذقتْ لغتها ، ولقنتْ أنغامها ، وانتهت بها الحال إلى أنها راحت تحاكيها وتطارحها الشدو والرنيم . بل ما كان أعجب شأن ذلك الطير الهيمان فى صحبة « هناء » . . . إنه ليرفرف حواليها ، آنساً بها ، متوداً إليها ، يتوسم فيها الخير والأمان . وإذا هو يتهافت

عليها ، ويتواثب على كتفيها ، ثم يسكن إلى صدرها الرحب الحنون .

ولم تكن صنوف الحيوان السارية أقل من الطير ألفة « لهناء » ، فهى تصادقها وتحسن معاشرتها ، وتنزلها من نفسها منازل الخلان الأصفياء. حتى إن الضوارى من الوحوش إذا ألمت بتلك البقعة ، راحت ترمق الصبية من بعيد ، ولا تلبث أن تنصرف عنها ، لا تتعمدها بسوء ، كأنما هى عليها صَيْدٌ حرام !

وكانت « هناء » تستقبل أيامها حافلة بالأعمال ، لا تحس لها من ملالة ولا ضجر . . . فهى فى الكوخ دائبة تَشْرَكُ حاضنتها فى تدبير شئون العيش ، وهى فى أكناف البقعة تارة تحتطب ، وطوراً تقتطف ، وحيناً هى لاهية لعوب .

صفت رُوحُ « هناء » ، فشفّت مشاعرها عن صوفية لطيفة وصلت بينها وبين السماء ، فأسلمتها إلى ساعات من التأمل والمناجاة ، وخلوات تقضيها فى صلوات وتسابيح ... ولشدّ ما كانت تحرص فى ختام مناجياتها وصلواتها على أن تبتهل إلى الله ضارعة إليه أن يباعد بينها وبين ذلك الذى يسمّى « الرجل » ، وأن يكفّ عنها شره وأذاه . وكيف لا تستعيذ بالله من ذلك الشيطان المَرِيد ، وقد طالما تحدثت إليها حاضنتها أنه للمرأة عدوها اللدود ؟ لقد كان « الرجل » سرّ ما عانته « هناء » من إقصاء وتشريد ، وما لقيتْه أمها من عذاب ومذلة وتهلكة . . . ما أظلم « الرجل »

للمرأة ، وإن كان لها زوجاً ، وإن كان لها أباً ! . . . تلك هى حاضنتها نفسها لم تنجُ كذلك من إيذاء زوجها لها ، فقد سامها الخسف ، وأترع لها كأس الغدر ، بعد أن اعتصر منها زهرة الشباب ، وزهوة الجمال !

لم تكن الحاضنة تدخر وسعاً ولا تدع فرصة فى سبيل الزراية بالرجل ، والنيل منه ، تحذر « هناء » أن تَعلق بها يوماً حبائله . . . وكانت تقول لها فيما تقول : إنهم يزعمون أنه لا غُنية للمرأة عن الرجل ، وإنى لأرجو لك يا بُنَيَّة أن يغنيك الله عنه كل غَناء ، حتى لاتذوق طعم الشقوة والبأساء .

وتواردت الأعوام ، تزيد « هناء » من نضرة ونماء ، وتجلو ما كمن فى فطرتها من فطنة متوقدة ، وسريرة نقية . فَرَهُفَ إحساسها بالكون المحيط بها ، وتوثقت صلتها بتلك الحياة التى تحياها فى ظل الطبيعة السمحة الوادعة . وكثيراً ما كانت الفتاة تعِنّ لها أفكار وخواطر ، تدعها فى حيرة من أمر هذه الدنيا وما حوت من كائنات . فلا تجد مُنتدَحاً إلا أن تطارح مربيتها أشتات الأسئلة والمناقشات ، تستجلى بها ما غمض عنها من أسرار الحياة . ونضجت عاطفة الفتاة ، وزَخر وِجدانها بحيوية جيّاشة ، فلم تملك إلا أن تفيض على ما حولها من مظاهر الطبيعة وأسباب الحياة مشاعر الحب فى أجلى معانيه .

كذلك كانت عيشة الفتاة ، حتى بلغت مَيعةَ الشباب .

وذات أصيل مضت « هناء » على مألوف عادتها فى مسارب الغابة

تمرح ، وبغتة تصيّد سمعها نَبْأة طارئة ، فوقفت ترهف السمع ، فإذا هى يتناهىَ إليها همهمة ليس لها بمثلها عهد . . . همهمة من مكان بعيد ! أهى حَسِيس عاصفة تَهيأ للهبوب ؟ إنها خبيرة بالعواصف ، لا تخطىء أذُنها من زمزمتها شيئاً ، وهذه الهمهمة الغريبة ليست من صوت العواصف فى قليل ولا كثير ! أهى زمجرة العاديات من الوحوش ، تَفتلى جنبات البقعة ، طلباً للغنم والافتراس ؟ إن « هناء » لا تفوتها معرفة أصوات الوحش على اختلاف أنواعه ، وتلك الهمهمة التى تسمعها الآن ليست من جنس ما سمعته من قبل . . . والفتاة لا تخشى للعاصفة من حَسِيس ، ولا تَهيبُ ما للضوارى من زئير ، فهذا وذلك مألوفان لديها ، لا يثيران عندها قلقاً ولا خشية . بيد أنها الساعة تحسّ رجفة الخوف تَمشى فى أوصالها من هذه الهمهمة التى استوحشت أذنها لها أول وَهلة . . .

ولبثت الفتاة مهتاجة ، تتجمّع يقظتها وإحساسها فى مسمعها وحده ، تريد أن تكتنه سر تلك الهمهمة التى تدنو من مكانها وتدنو . . . وألفت قدميها على حين بغتة تدفعان بها إلى الهرب ، وإذا هى تعدو خلال الشجر ، كأنها ظبى وَثّاب شَرود . وفجأة وقفت تتحسس جنبها ، فقد شعرت بأن شيئاً أصابه ، وقبل أن تفقه حقيقة الأمر تَهاوَتْ على الأرض فاقدةَ الوَعى .

ولما أفاقت من غشيتها شيئاً ، سمعت صوتاً يَهمس عن كَثَبٍ منها ،

لم تدرك له مدلولا . فتحركت فى مرقدها ، فإذا هى تجد نفسها تتقلب على مهاد ناعم وطىء . وما عتمت أن تنسمتْ حولها جواً هداها إلى أنها تحتلّ مكاناً لا هو كوخها المعهود ، ولا هو ناحية من نواحى الغابة التى تعرفها حق العرفان . واستكملت الفتاة يقظتها من غشيتها ، بذلك الألم الذى أخذت تحسه يعاودها ويعنف بها ، فأدلت يدها إلى جنبها تلمسه ، وتتعرف شكاته . . . فرفّ على سمعها ذلك الصوت الهامس يقول فى رفق : اطمئنى . . . لقد ضمدت جرحك ، فاسكنى ، حتى لا يزداد بك الألم .

فاختلجت أجفانها ، وعدلت برأسها صوبَ الصوت تتثبت من ذلك الذى يتحدث إليها هذا الحديث . لا مرية عندها الآن فى أنه كائن جديد ، كائن غريب ، لم تعرفه البقعة فيما مضى ، ولم تصادفه الفتاة فى أيامها الخالية . . . من يكون ؟ وانتظمتها رعشة هزت أوصالها ، وارتسمت على قسماتها الدهشة والاضطراب . واستغرقت الفتاة فى دخيلتها تستهدى بصيرتها عوناً على ما تجد من حيرة وقلق .

وسمعت الصوت يقول :

أنا الذى جرحتك . . . سهم من سهامى أصابك !

فما كادت تسمع ذلك حتى انتهت بها الحيرة والظنون إلى يقين . . . لم يعد خافياً عليها هذا الكائن الغريب الجديد . فقالت فى اندفاع :

مالى ولك تسىء إلىّ ؟

— حَسِبتكَ ظبياً فرميتك . إنى نادم إذ فعلتُ ، فاغفرى لى .

فهينمت تقول : حسبى منك ، وكفانى الله شرك .

فجعل يتوسمُها حيران من أمرها ، يتملى فيها جمالا ساذجاً طريفاً فى عينه ، جمالا طبيعياً محضاً فى تقويمه وتعبيره . . . ورآها لا تريمُ وجهه ، فهى تحدق فيه أبداً تحديقاً سديداً . . . فرابته نظراتها ، فتدانىَ منها ، فإذا بحدقتيها ساكنتان ، فقال لها : ما بك ؟ وفيم نظراتك هذه ؟

فأجابته : لا شأن لك بنظراتى . . . إنها لا تملك ضراً ولا نفعا . . . إنك لترانى دون أن أراك !

فاقترب منها يرنو إليها فى تفحص واستجلاء ، وكلما أنعم فيها النظر ازداد من عجب . . . وأخيراً قال : أفصحى . . . لست أفهم ما تعنين !

— ألستَ تجدُنى غيرَ مبصرة ؟

فندّت منه صيحة ، وهو يقول : يا لله ! . . . أتفقد هاتان العينان نورهما ، وقد اكتملت لهما الروعة والفتنة والسحر ؟

فتزايل عن مُحيّا الفتاة ما كساه من تجهم وقطوب ، ولمحت عليه إشراقة عابرة وهى تقول : أعيناى كما تصف ؟

— إنهما فوق الوصف .

فانطلق الفكر بالفتاة هنيهة ، ثم قالت للرجل :

من تكون ؟ ولم حللت أرض البقعة ؟

فقال فى رَيْث :

إنى جوّاب أتصيّد . . . وقد انساقت بى الرحلة إلى هذه البقعة غيرَ قاصد . . .

– وأنا ؟ . . . أين أنا الآن ؟

– إنك على مقربة من الغابة ، يحتويك خبائى ، فقد حملتك إليه حين نالك سهمى ، وأنت فى الخباء آمنة مطمئنة . . .

وهفت إلى أن تجلس ، فخف إليها يعينها ، فنحّت عنها يده ، وهى تقول : إنى على النهوض قادرة . . . سأمضى إلى مَثوَاى !

– اذكرى أنك ذات جُرح . . .

– لا ضَير . . .

واعتدلت فى جلستها تريد نهوضاً ، فناولها قدحاً من عصير الفاكهة ، وهو يقول : رُوَيْدَك . . . لا أقل من أن تشربى هذا القدح ، إنعاشاً لك وتَروية . . .

وكانت « هناء » يكاد حلقها يتشقق من ظمإ ، ولكنها أبت أن تستجيبَ « للرجل » ، وأن تتقبل منه شرابه ، وما هى إلا أن استشعرت نَداوةَ القدح تُلامسُ شفتيها ، وشذا الشراب يعطر أنفاسها . . . وسمعته يقول : حلفت عليكِ أن تشربى !

وأسندت القدحَ بيمناها ، وجعلت ترشف ، فقال لها :

كيف تجدين مَذاقه ؟

— شراب سائغ .

— إذا رغبتِ فى قدح آخر ، تقدمتُ إلى غلمانى ومَوالىّ أن يُعدّوه لك .

— ألك غلمان وخدم ؟

— لى منهم كثير . وإنهم رهن مشيئتك فيما تحبين . . .

— لزام علىّ أن أغادر خباءك الآن . . .

— ولماذا ؟

— لألحقَ بمثواى .

— من أنت ؟

— ماذا يعنيك من أمرى ؟

— لا بد أن أعلم قصتك .

— دعنى أخرج ، فقد أقبل الليل ، وأخشى أن يساورَ حاضنتى خوف علىّ .

— ألك حاضنة تنتظر أوْبتك ؟ . . .

— قلت لك دعنى أخرج .

— ولكنّ بكِ جُرحاً يقتضى رعاية . . .

– سأُعنى بجرحى ، فاتركنى وشأنى .

– سآمر غلمانى أن يهيئوا لكِ مَحَفَّةً يحملونك عليها إلى مثواك . . .

– أوثر أن أعودَ سيراً على قدمىّ . . .

– ولكن . . .

فصاحت تقاطعه :

عليك أن تتركنى ، وحذار أن تقفو خطاى . حذار . . .

فسكت عنها لحظة ثم ربتَّ كتفها فى تلطف ، وهو يقول :

ما شئت فافعلى .

فنهضت عن مرقدها ، وشرعت تنقل خطاها ، فاستوقفها يقول :

ألا يروقك أن نلتقى ثانية ؟

– كلا . . .

– ولم ؟

– كلا ، وكفى . . .

ومضت بهدى البصيرة تلتمس الباب ، فقال لها مهتاج الخاطر :

الطريق شائك . . . وأخشى أن تضلى مثواك .

فابتسمت مستخفة بقوله ، وردت عليه تقول :

أرح نفسك من أمرى .

وغادرت الخباء تطويها ظلمة العشية ، وهو يتبعها نظره فى حيرة وعجب .

سارت « هناء » تقطع الدروب ، وتجوز خلال الشجر ، تعلو بها رَبْوة ، وتهبط بها وَهْدة ، ومن فوقها تتناغى الطيور فى أعشاشها ، كأنها تؤنسها فى وحشة الليل ، وتعينها على وَعْثاء الطريق .

بيد أن « هناء » كانت فى شغل عن تغريد الطيور ، لا بما أصاب جنبها من جُرح ، ولا بما يعتادها من ألم ، ولكن بما صادفت اليوم من هذا الحادث العظيم ، حادث لقائها لذلك الكائن الجديد الغريب ، ذلك الذى جمع القدَرُ بينها وبينه ، على غير موعد ، وعلى غير حِسبان . ذلك الذى تحدث إليها وتحدثتْ إليه ، فأضاف صوتُه جديداً إلى ما سمعت من أصوات . ذلك الذى أصابها برمية من قوسه ، دون أن تجنى ذنباً أو تُسلفَ إساءة .

أليس هو « الرجل » ؟ . . . خصيم المرأة الشَّغوب ، والحريص على إذلالها والتنكيل بها كل الحرص ؟ أليس هو الذى أفاضت الحاضنة لها فى التحذير منه ، والاسترابة به ، وكانت تسأل الله لها أن يُغنيها عنه ، ما بقى فيها رَمَق ؟

ولكن ما بال هذا الرجل لم يكن فى لقائه إياها أخا غلظة وقسوة ؟ . . . لئن كان قد أساء إليها لقد كان فى ذلك غير عامد ، وما تنكر هى أنه بالغَ فى التلطف بها ما وَسِعَه أن يبالغ ، وبذل لها من العون والرعاية ما خفَّفَ عنها ألم الجرح . . . أترى الحاضنة أسرفت فيما رمت به صِنْفَ

الرجال من مآثم وأسواء ؟ أم ترى الرجل يطوى نفسه على خلة من الخديعة والمخاتلة والدهان ، فهو يرق ويتلطف لكى يتمكن ويتملك ، وهو كالثعبان يلين ليلدغ ؟

وظلت الفتاة فى لجة من أفكارها ، حتى قاربت باب الكوخ . . . فإذا حاضنتها تبتدرها مسائلة إياها : ماذا أبطأ بها ؟

فلم تجب « هناء » . . . وعجلت إلى فراشها ، فألقت بنفسها فيه ، وقد مسها إعياء . وما أسرع أن جاءت إليها الحاضنة تسألها :

ما بك ؟ هلا أخبرتنى !

فطفقت الفتاة تقص عليها مغامرة اليوم ، وعلى محياها سكينة وهدوء ، وفى حديثها وداعة وأناة ، كأنما هى تقص رؤيا جازت بها فى عالم المنام ... وأرهفت الحاضنة سمعها لحديث الفتاة ، لا تقطعه عليها بكلمة ، حتى إذا تمت القصة ، نهضت الحاضنة تقول فى صوت متهدج : علينا أن نبارح البقعة . . . علينا أن نخليها لمن حل بها اليوم . . . لا مقام لنا حيث الرجل مقيم ... إنه لا أمان لنا من شره وأذاه ... فلنرحل يا بنية ! ... فلنرحل فى الغداة !

فقالت « هناء » وصوتها مهزول : أنهجر وطننا لذلك الغريب ؟ عليه هو أن يرتحل عنه ، وأن يدعه لنا من دونه !

— وإذا أبى أن يرتحل ؟

— سأعرف كيف أريده على الرحيل . . .

ورنّق فى عينيها النعاس ، وقد استبدّ بها الجهد . وما هى إلا أن أخذت الحمى ترعىَ جسدها ، فباتتها ليلة عسراء ينبو بها المضجع ، ولسانها يَهذى بأضغاث أقوال . وخُيِّل إليها أنها تتقلب على فراش من حَسَك ، وأنها ما برحت خِباء ذلك الصائد الجوّاب ، تنتابها سهامه سهماً تلو سهم ، فتحسّ لوخزها ألماً بعد ألم . . . ثم لا تلبث أن تجد ذلك الصائد مقبلا عليها حانياً عطوفاً يأسو جراحها الدامية .

وتواصلت أيام عانت فيها « هناء » وقدة الحمى ، وهى ذاهلة لاتعرف من أمر نفسها شيئاً . . .

وفى صبح يوم فترت حرارتها ، فاستردّت وعيها ، واستطاعت أن تستوى على سريرها ، قائلة لحاضنتها مهمهمة :

ما أقساها ليلة مرت علىّ ! شدّ ما اختلطت فيها أحلامى . . .

فمالت عليها الحاضنة فى بشاشة وابتهاج ، تقول : حمْداً لله على سلامتك . . . لم تكن ليلة واحدة ، وإنما هى ليال ثلاث . . .

— أمضَتْ علىّ ثلاث ليال وأنا نائمة ؟

— لا عليك يا بُنية ، فقد مرّ ما مرّ ، وانزاح الشر . . . ألاتجدين عندك شهوة لطعام ؟

— لا بأس بقليل من شراب . . .

وأسعفتها المربية بما طلبت ، فأخذت « هناء » ترشف ، وهى تقول :

لقد سقانى عصير فاكهة طيب المذاق . . .

وأمسكت عن الكلام هنيهة ، ثم استأنفت تقول ، وهى تواجه حاضنتها بابتسامة : ولكنى أوثر عليه هذا الشراب . . . إنه من صُنع يدك !

فقالت المربية تَحثها : اشربى يا بنية اشربى !

— أما العصير الذى سقانى إياه ، فهو من صنع غلمانه ومواليه .

— أنت إلى الراحة أحوج ، فلا تسرفى على نفسك بالكلام .

— لقد أصبت من الراحة ما فيه مَقنع . . . ألم تقولى إنى قضيت نائمة ثلاث ليال ؟ لقد أضجرتنى هذه الراحة ، وأحسّ الميل إلى الحركة والحديث !

فلاطفتها المربية تقول فى تحنن : وماذا عندك من قول ؟

— أفكار شتى يَزْحم بعضها بعضاً ، فما أدرى من أين أبدأ الحديث. يا له من حُلم عجيب !

— أى حلم يا « هناء » ؟!

— تلك الرؤيا التى طالعتنى فى منامى . . . كان يرمينى بالسهام تِباعاً ، ثم لا يفتأ يأسو جراحى ويواسينى !

وأخذت الفتاة بيد الحاضنة تضغطها ، وهى تقول :

لقد طلبت إليه ألا يقفوَ خطاى . . . فهل فعل ؟ . . . اصدُقينى !

فزاغت نظرات المربية وهى تعالج أن تجعل لها مخرجاً من الإفصاح .. ولكن « هناء » حاصرتها تقول :

لقد نهيته وحذرته ، وأخشى أن يكون خالفنى .

فطأطأت الحاضنة رأسها وقالت : وما نفع النهى والتحذير مع هذا الصنف من خلق الله ؟ سنرحل يا بنية . . . سنرحل لا مناص !

— أجاء هنا ؟

فلم تُحر المربية من جواب ، فاستأنفت ربيبتها تقول : ماذا فعل ؟

— لا شىء . . . قلت لك لا مُقام لنا هنا بعد اليوم !

— لا يخرجنا من أرضنا أحد . . . أندع هذا الرجل يطردنا من جنتنا ؟

— لقد سبقه إلى مثل ذلك « إبليس » . . . بسببه فارقت الجنةَ « حواء » !

— ذاك صنيع « إبليس » ، فأما نحن فبإزاء رجل مثلنا إنسان .

— الرجل أدْهَىَ من « إبليس » دهاء وأشدّ خبثاً ومكراً . . . ولا تدبير لنا معه إلا أن نُخلىَ له وجه المكان ، لا أقل من أن نتوارى عن عينيه إلى حين . . . أوجِسُ من هذا الرجل شراً ، وقلبى دليلى .

فصمتت « هناء » فترة ، ثم قالت فى استسلام :

إنى معك على أية حال ، فافعلى ما تريدين !

وفى الضحوة من غد كانت « هناء » قد تماثلت ، فخرجت تجلس أمام الكوخ لتستروح ، وتهافتت عليها أسراب من الطير تناجيها بأنغامها كأنها تَزُفّ إلى سمعها فرحة السلامة والشفاء ! . . . و بينما الفتاة فى مجلسها الأغنّ الأنيس ، إذ أحست بالطير يدركه ذعر ، فيتفرق عنها ضارباً فى الأفق . فألفت « هناء » نفسها تنهض قائلة على الفور : أنت ؟

— نعم ، أنا . . .

— أما قلت لكَ لا تَقْفُ خطاى ؟

— إنما بَغيت أن أطمئن إلى سلامتك .

— بل إنه الفضول يبعثك على أن تَعبَث براحتى .

— استوحيتُ ضميرى فيما فعلته ، وما حسبتهُ واجباً أديتُه . . . لن أضايقك بزيارتى ! . . . أردت أن أنتظر حتى أراكِ بارئة ، وإنى مزمع الرحيل عن البقعة بعد قليل .

— لك شكرى .

— فرغتُ من مهمة الصيد ، ولم يبق لى فى المقام من أرَب . . . وهأنذا جئتكِ مودعاً . . .

— صحبتْكَ السلامة فى تَرْحالك . . .

— أستأذنك فى سؤال .

— سل ما بدا لك أن تسأل .

— أما زلتِ حانقة علىّ ؟

— من أخبركَ بأنى عليك حانقة ؟

— فيم نُفرتُكِ منى ؟ أتخشينَ أن ألحق بك مضرة ؟

— كأنك ترجو أن أخشاك !

— إنى ألمح فيك إنسانة ليست من جنس الناس . . .

— ماذا يشغلك من أمرى ؟

— أليس فى إيثارك الحياة فى هذه البقعة ، وعُزْلتك عن مزدحَم الناس ، مَثار للدهشة والعجب ؟

— فلأكن عندك ضرباً من حيوان البقعة ، يزُلْ عجبك ودهشتك. ألم تحسبنى ظبياً فرميتنى بسهمك ؟

— لم يقع فى خلدى أن آدمياً يسكن هذه الغابة القاصية ، فكنت وأنت تتواثبين بين الشجر أشبه ما تكونين بظبى ناشط نَفور .

— ولكنك ألفيت إنسانة مكان الظبى ، ولعلها أشدّ منه شروداً ونفرة . . . ما أسوأه بَدَلا !

— بل نعمَ البديل . . . ألفيتُ إنسانة تتفرد بما لها من صفات : شباب وفتنة وذكاء ، ولكنها صفات تضيع فى هذه الأرجاء ضيعة الصوت فى الفضاء ! . . . حقاً إنه لأمر يهيج الغيظ ويثير الحنق !

فابتسمت « هناء » وقد توردت وجنتاها ، وهى تقول :

علام الغيظ والحنق ؟

— لؤلؤة نادرة يخفيها قاع البحر ، لو قُدِّر لها أن تبرز للشمس ، لبهرت بلألائها أنظار الخلق . . . ألا يَحنق المرء ويتغيظ حين يعلم أن هذه اللؤلؤة باقية فى مستقرها ، سجينة البحر ، رهينة القاع ؟

— وما انتفاع لؤلؤتك بأشعة الشمس وأنظار الخلق ؟

فقال فى تحمس واهتياج : لها منافع أى منافع . . . حَسْبها الشعور بما لها من جلالة وخطر . . . حسبها الاعتزاز بما تتبوأ من تيجان ، وما تزين من صدور . . . لتكونن هذه اللؤلؤة أبهى جلاء وأجمل صقلا حين تنطلق من محبسها الغائر فى غيابة الأصداف ، متألقة فى أفقها الجديد !

— وعسى أن تكون لؤلؤتك لا تعلم من أمر نفسها ما يعلم مثلك ، فهى قانعة هانئة بحياتها التى تحياها فى سذاجة ودعة واطمئنان !

— كأنك تَرَيْنَ أن هناءة المرء فى أن يجهل قيمة نفسه !

فتريثت قبل أن تجيب بقولها فى سهوم : وما ضر المرءَ أن يجهل ؟

— هذه السعادة فيما تصورين ليست إلا وهماً كاذباً ، فما السعادة الحقة إلا أن يستبطن المرء خصائص نفسه فيجلوها على الملإ ، لتأخذ حظها من كسب الحياة ومجد التقدير .

فقالت « هناء » وهى تزداد سهوماً :

أوضح ، فما زلت بحاجة إلى إيضاح . . .

— مواهب المرء خُلقتْ معه ، لكى تعينه على أن يسعد ، ولكى يستطيع أن يظلل بسعادته جموع البشر . . . هنا تبطل الأثَرَة والأنانية ، ويحل محلها التعاون والتآزر والإخاء . . . إنما خُلقَ الناس ليسعدَ بعضهم بعضاً !

فهينمت الفتاة تقول :

من كانت عنده مواهب لإسعاد الناس ، فليكن بها سخياً .

— وهل تظنين أنك قد أقفرتِ من مواهب الإسعاد ؟

— ماذا ترى فىّ من مواهب ؟

فصاح يقول : فتنة الحسن ، وروعة الجمال !

— إنك ترى ما لا أرى !

— أنت تجهلين ما وهبك الله من منحة غالية . . . عبقرية الجمال . . . تلك القبسة الإلهية التى تكمن فيها حرارة الحياة وخفقة الوجود . . . لولا الجمال الذى يربط الكائنات بروابط الحب ، لعم الكون تنافر أوْدَى به ، فلم يُبق منه باقية !

— ربما كان الجمال غنما ، ولكنه غُنم لمن يبصره . . .

— بل إن الجمال غنم كذلك لمن يستشعره . . . أتجحدين شعورك بروعة ما يُحْدِق بك من مجالى الجمال ؟

— لا جحود .

— أتنكرين إحساسك أنك وافية الحظ من الجمال ، وأنك فاتنة فتنة الطبيعة فى زُخرُف الربيع ؟ . . .

فأطرقت الفتاة ، وازداد توهج وجنتيها ، وقالت فى صوت المهتاج الحَيِيّ : دَعْنا من هذا . . .

— لا أدعك . . . بل أريدك على أن تصارحينى : أتحسين ما لك من فتنة وجمال ، أم لا تحسين ؟

— لست أدرى .

— أنت صادقة فيما تقولين ، فإنك لا تدرين الكثير من حقائق الحياة حواليك ، وذلك مَرَدّه إلى تلك الخلوة والوحدة التى باعدتْ بينك وبين دنيا الناس .

— إنى راضية بخلوتى ووحدتى ، وما أبغى بعيشى بدلا . . .

— كشأن اللؤلؤة القانعة بحياتها فى دخيلة الأصداف ! . . .

— لؤلؤتك هذه لا تملك لنفسها صَرْفاً ولا عدلا ، فهى مشدودة إلى باطن صدفتها بأعراق محكمة الوَثاق .

— ما أحوج اللؤلؤة إلى من ينتزعها من أعماق الأصداف ، لتطالع أفق الهواء والضياء !

فتزحزحت « هناء » فى وقفتها شيئاً محجمة ، وهى تقول :

لا . . .لا ينتزعها أحد ! . . . لا يخرجها من نطاقها شىء !

وتابعت تراجعها ، وهى تقول فى صوت مخفوض :

اتركنى . . . وداعاً !

فهمهم يقول : بل إلى ملتقى وَشيك !

وأدبرت « هناء » تقصد باب الكوخ ، ومضت تَنوًّا إلى مرقدها تستقبلها فيه غاشية المحموم ، ولكن الغاشية لم تكن بالحمى التى تسلم الفتاة إلى غيبوبة وهذيان ، بل هى حمى اليقظة والتوفز والقلق . . . ولبثت الفتاة على سريرها ممدودة ، وكأن هاتفاً يحْم على مقربة منها ، يعيد على سمعها حديث الصائد ، لا يمل التكرار .

وما إن رجعت إلى الكوخ حاضنة « هناء » حتى أقبلت على ربيبتها تتبين أمرها ، فأفضت إليها الفتاة بكل ما جرى ، فصاحت الحاضنة :

أيجرؤ أن يتحدث إليك فى هذا ؟ أقادر هو على أن ينتزعك قَسراً من موطنك الأمين ؟

— لم يكن فى قوله أمر وقسر ، وما أحسبه يطوى نفسه على شر . . .

— بل أقسم على أنه ينوى الشر كل الشر .

— لقد كان يتحدث إلىّ هادئ الصوت ، كأن حديثه وسوسة الطير . . .

— إنه « إبليس » ، يبدو فى إهاب قدّيس . . . لهو أفعوان خدّاع ، باطنه سم ناقع ، وإن كان فى ظاهره مَلمِس الريحان ! . . . احذريه

يا بُنية ، فأنت غريرة لا خبرة لك ولا تجربة . . . هلمّى نرحل !

فقالت الفتاة ، وقد ضاقت بحديث حاضنتها : كما تبغين . . .

وأمضت الفتاة يومين لا تبرح عتبة الكوخ ، يتنازعها وحشة وانقباض ووجوم ، وفى صدرها نزعات مضطرمة تعانى من كبتها ما تعانيه . . . ولطالما حوّم فى خاطرها حديث الصائد عن تلك اللؤلؤة التى تخفى تألقها فى ظلمة الأصداف ، فيتمثل للفتاة طيف اللؤلؤة رائعاً فاتناً لو برز إلى عالم الهواء والضياء لتنافست فى اجتلائه الأنظار . . . وينساق التفكير بالفتاة هنا وهنالك ، وتزداد بها الحيرة والاضطراب .

وكانت الحاضنة كلما ضربت موعداً لساعة الرحيل ، راحت الفتاة تعتلّ على الحاضنة بكل ما يسعها أن تعتلّ به ، تأجيلا للرحلة ، وتعويقاً للإزماع . ولم تجد المربية محيصاً من أن تُقبل على فتاتها تثير فى نفسها الخوف من الرجل ، فتصوره لها فى أبشع الصور ، وتصف من أمره ما يبعث على الهرب من وجهه . فإذا الفتاة تجيب مربيتها بقولها :

إن هذا الرجل لأعجز من أن يمسّنا بسوء !

فدنت المربية من ربيبتها مهتاجة تقول : بل إنه لقوىّ الشكيمة ، وافر الأعوان ، واسع السلطان . . . ليس هو بالصائد الجوّاب كما يزعم ، فلقد تحسستُ خبره ، فتناهى إلىّ من أمره الكثير . . . أعترف لك يا بُنية بأنى أخشاه !

— أما أنا فلا أحس منه خشية !

وقضت « هناء » ليلة ثقلت عليها وطأتها ، فما إن أحست طلائع الفجر حتى ضاقت بمرقدها ذرْعاً ، ولم تملك فيه مقاماً ، فعجلتْ تخرج أمام الكوخ تستقبل صباحها الجديد ، وتستنشى نسيمه الرطيب .

وأخذت على الفور ترجّل شعرها السبط المواّج ، وتعنّى بالتطيّب والتزين بالأزاهير . . . وأحست بقدميها تمشيان الهوينىَ ، فتركت لهما الحرية والانطلاق . وألفت نفسها تخترم المسالك والدروب ، فتهبط الوهاد ، وتعتلى الرّبىَ ، حتى ألقت بها خطواتها فى دَغل مشتبك ، فصكّ سمعها صوت من بعيد يقول : حسبك انطلاقاً . . . كاد سهمى يصيبك كما أصابك من قبل !

فتراجعت شيئاً ، وكان وراءها جذع شجرة ، فأسندت إليه كتفها ، وقد انسدلت على منكبيها خصلات شعرها المسترسل ، وصدرها يعلو ويهبط ، وما هى إلا أن وافاها الرجل مائلا قُبالتها يتملاها على ضوء الشمس الوادع ، وهو يتسرب إليها من بين مشتبك الغصون والأفنان . . .

وسمعتْه يقول : أما حدثتك أننا ملتقيان فى قريب ؟

— هى الأقدار صانعة الغرائب والأعاجيب !

— إذا هفت الروح إلى شىء كان لها سلطان القدَر الغلاب ! . . .

ورُوحى إلى لقياك يهفو بها شغف وحنين .

– وماذا تبغى من لقائى ؟

– إحساس كمين يصلنى بك ، لا أملك له دفعاً . . .

– وإلى أية غاية تسعى ؟

– أن أسعد روحى وروحك معاً . . .

– أما زلت تحسب أنى بحاجة إلى مزيد من الإسعاد ؟

– إنى من ذلك على يقين . . . كفى ما مضى من أيامك التى بعثرتيها بين حصباء هذا المنفى ، والدنيا الواسعة وراء ذلك زاخرة المباهج زاهية الألوان . . . وإنها لتستقبلك بأجمل الترحاب !

فصمتت الفتاة لحظة ، وفكرها يتتيه . ثم قالت حازمة اللهجة :

أوضح ما أنت قاصد . . .

فقال وقد دنا منها يأخذ بيدها فى تودد : أن تكونى معى ، تعمرين قصرى ، ومن حولك أعوانى وخدمى يأتمرون بأمرك . . . ألا ترضين أن تكونى شريكة حياتى ؟

فاختلج صوتها يقول : شريكة حياتك ؟

– زوجة الأمير . . . لا يألوها الأمير إسعاداً !

فقالت مهزولة الصوت فى تردد : لا . . . لا . . .

– ولم لا ؟

فتابعت قولها : لقد آمنتُ بأن المرأة لا خير لها فى صحبة الرجل . . .

— باطل من القول وزُور .

— ملء حياتى دلائل على صدق ما آمنت به .

— عندى نبأ مما يشغل رأسك من وساوس وأوهام . . . لقد عرفت من حاضنتك ، فى أثناء وعكتك ، خبيئة أمرك . . . لقد بعثنى الله إليك لأصلح من شأنك ما أفسدته الأيام . . . ليس الرجال سواء ! . . . ثقى بما أقول ، وعولى علىّ كل التعويل !

— حبذا وثوق الإنسان بأخيه الإنسان . . . ولكن !

— ماذا ؟ أفضى إلىّ بما عندك .

وازداد منها دنواً ، وهو يلاطفها ويحوطها بذراعه ، فلم تنكر عليه ، بل لقد أحست بالطمأنينة فى كنَفِه ، واستأنف الأمير قوله : أفيضى وصارِحينى

— إنى خائفة .

— مم خوفك ؟

— . . . لست أدرى !

— أتراك تخافين من نفسك ؟

— . . . لست أدرى !

— إن هى إلا أوهام فتاة هَيُوب تُعوزها الجرأة التى تواجه بها ما ليس بمألوف . . . لقد تعودتِ حياة السذاجة الساكنة الصامتة فى رحاب هذه البقعة ، فأنت تَخشَين ما عداها . . . أنت أحوج ما تكونين إلى رُوح

المغامرة ، حتى يكون بك إقدام على اقتحام المجهول . . . أنت أحوج ما تكونين إلى يد تدفع بك إلى لجة الحياة ، تخوضين غمارها ، وتتعرفين أعماقها . . . لأكونن ذلك الذى يَبُثّك تلك الروح . . . لأكونن هذه اليد الدافعة بك فى ملتطم الموج .

— تريد أن تُلقى بى إلى ضيعة وتَهْلُكَة . . .

— إنى معك ، رائدك وهاديك ، لا أتخلى عنك ، ولن يصيبك شر ما دمت فى صحبتى !

وأظلتْ الفتاةَ وصاحبها فترة صمت ، على حين كان فكر الفتاة قد دارت به دَوّامة من شتى الخواطر والتصورات ، والأمير فى وقفته مسحور يتوسم ذلك المثال الرائع من جمال فطرىّ يشف عن روح صفىّ نقىّ ، لم تقع عينه على نظيرهما فيما وقعت عليه من غِيد حسان .

وانشق حجاب الصمت عن صوت الفتاة تقول : أما حجزكَ عن رغبتكَ فى مصاحبتى حاجز ؟ ألستَ رأيتنى فاقدةَ البصر ؟

فضغط الأمير يدها يجيبها فى توكيد : لن تلبثى كما أنت لا تبصرين. آن لعينيك أن تنعما بالنور يا « هناء » !

فذهلت الفتاة وهمهمت : لستُ أفهم مما تقول شيئاً . . .

— ستبصرين . . . قلت لك إنك ستبصرين .

— أهازئ بى أنت ؟

— أقسمتُ لا سخرية ولا هزؤ . . . لتبصرنّ يا «هناء» . . . لترينّ الدنيا كما نراها ، وإذن يتاح لك أن تحيَيْ معى حياة الرخاء والنعمَى !

— لقد وُلدتُ كما أنا مكفوفة البصر ، وقضيتُ أيامى كما ترانى ، فأنّى لك أن تردّ عنى ما قضى به الله ؟

فقال لها الأمير فى رزانة واطمئنان : لقد تيسر لى أن أعودك وأنت على فراشك فى غيبوبة الحمّى ، وكان معى طبيبى العظيم ، أمهر أطباء عصره ، فما زال معك يفحص ويتعرف ، حتى زفّ إلىّ هذه البشرىَ السعيدة ، بشرى إمكانه أن يجلو عن عينيك هذه الغشاوة التى تحجب عنك مجالى الحياة .

فأحست الفتاة أن انتفاضة تعروها ، وما لبثت أن ران عليها وجوم . فأخذ الأمير يلاطف يديها وهو يقول :

هكذا الله فى عون المظلوم . . . وهكذا الصبر آخرته خير !

واجتذب يدها يدعوها أن تخطو معه ، فانقادت له ، وجعلا يتهاديان خلال الشجر ، تهبّ عليهما أنسام رقاق ، وتداعب وجهيهما أهداب الغصون . وأقبل الأمير على سمع الفتاة يرطبه بأحاديث عذبة ، على حين كانت الفتاة منطوية على نفسها ، يعلوها سهوم . . . بسط الأمير لفتاته كيف هو راحل بها إلى دار إمارته ، فتعهد إياها ، غير مدّخر وسعاً فى تكريمها وتنعيمها ، ومتى اطمأن بها المقام فى كنفه ،

تولاها الطبيب بالأشفية والعلاجات ، فإذا هى عما قليل ذات بصر . . .

ولما بلغ الأمير من حديثه كل مبلغ ، عقّبت الفتاة عليه بقولها :

فيم حرصك وإصرارك على أن أبصر ؟

— لأنى أبغى لك السعادة مكتملة . . .

— أَحسبتَ أن الإبصار عنصر من عناصر اكتمال السعادة للإنسان؟

— الإبصار سبيل إلى معرفة جديدة ، ووسيلة إلى لذة واستمتاع ... أداة تكشف وجهاً من حقائق الوجود !

— ليست العبرة بالأداة ، وإنما العبرة بما يتوافر لصاحب الأداة من قوة التمييز ، لاستكناه الحقائق ، واكتساب المعرفة ، وحسن الاستمتاع . أترى كل مبصر يفيد من إبصاره شيئاً ، ويضيف إلى معرفته طرفاً ؟

— وهل الأمر إلا كذلك ؟

— ولم لا تكون تلك الأداة مَدْرَجة إلى خداع وتضليل ، يسوء بها فهم الحقائق ، وتنعكس بها صور الأشياء ؟

— عَجبتُ لما تقولين !

— إن المرء لا يعرف كنه أمر ، ولا يدرك دقائق صورة ، إلا إذا استملى وَليجة نفسه ، ودخيلة مشاعره . أليست البصيرة أولى الأدوات بأن تستكنه الحقائق ، وتستجلى الصور ؟

فوقف الأمير يستمع مشدوهاً ، ثم همهم : لا أجحد ما تقولين ،

ولكن الإبصار عظيم الجدوى بلا جدال . . . إنه ليُكسب الإنسان اطلاعاً على الظواهر التى تحيط به فى حياته ، وكل اطلاع هو رشفة يتذوق بها الإنسان لوناً من المتعة والإسعاد . . . كلما ازددت بجوانب الحياة معرفة ، ازددت بها من سعادة واستمتاع . . . أصْغى إلىّ . . . لقد كنتِ بعزلتك سعيدة فى دنياك الضيقة ، ولكن ألم تصبحى أكثر إسعاداً وأوفى استمتاعاً منذ التقيت بى ، أعنى منذ أضفتِ إلى حياتك لوناً طارئاً من الحياة ، عنصراً جديداً لم تكن لك به معرفة من قبل ؟ أجيبينى : ألست اليوم أسعد منك بالأمس ؟

— أمعرفتى بك زادتنى سعادة ؟

— سؤالٌ عندك جوابُه .

فصمتت هنيهة ، فتابع الأمير قوله مشبوبَ النفس : أما أنا فلا أنكر أن معرفتى بك أهدتْ إلىّ رحيقاً من السعادة والنعيم . صارحينى لا تكاتمينى . . . لقد سَرتك ملاقاتى بلا ريب !

فأدارت وجهها شيئاً ، وهى تقول : ربما ...

— ولو أبصرتِنِى لازددت معرفة ، أعنى لازددت بى مسرة وسعادة .

— أخشى على نفسى من أن أبصرك !

— أظننتنى دَميمَ الطلعة ، بَشِعَ الصورة ؟

— لا شأن لى بدمامة ولا بشاعة . . . قُصارَى ما أخشى أن أجدك

على غير ما أنتَ فى مخيلتى ، وفيما صورك إحساسى .

— بربك حدثينى : أية صورة تتمثلينى عليها ؟

فأمسكت عن الكلام لحظات ، وعلى طلعتها أمارة الاستغراق فى التفكير ، ثم قالت فى لهجة الحالم الهيمان : إنى لأتمثلك فى صور مختلفات. لكأنك أحياناً تترسّل إلى سمعى لحناً جديداً علىّ ، فيه الجلبة والعنف ، يمازجان الهِينةَ والرفق ، وإنه ليثير فى نفسى غرائب إحساس . . . ولكأنك آونة أدنىَ إلى خطرة النسيم فى الصباح الرطب ، يحمل فى أعطافه أنفاس الأعشاب ذكية العطر ، فإذا هو يصافح وجهى يبعث فىّ اليقظة من سُبات مديد . . . ولكأنك تارة بعد تارة أشبه ما تكون بفكرة جياشة مستبهمة ، تطوّح بى فى حيرة واضطراب !

فصاح بها وهو يحتويها على صدره :

حسبك ، حسبك . . . إنه الحب ، وهذه شواهده !

فهينمتْ تقول ، وقد تراختْ بين يديه :

الحب ؟ . . . لا أدرى . . . وحقك لا أدرى !

وترافقا ، تاركيْن الخمائل إلى رحبة معشبة تموج فيها أشعة الشمس ، فقالت « هناء » : عروس النهار فى ساعة جَلوتها !

فهمهم الأمير وهو يتلفت حوله : يا للضوء الساطع !

— الضوء الساطع ... النور... ألا تستطيع أن تصف لى ما النور؟

– النور ؟

– أخبرنى به ، اجعلنى أقترب منه ، زدنى به معرفة ، أنلنى سعادته !

– النور ؟ . . . النور ؟ . . . إنه يقظة عظيمة ، بهجة قوية ، أمل عريض ، عزم واقتدار . . .

– أيكون الظلام إذن مزاجاً من الكآبة والخمول ، ومن الخور واليأس ؟ !

– فى الظلام من ذلك كله ظلال . . . .

– أى ظلام ؟ إنى لا أجد فى دنياى التى أعيش فيها شيئاً مما تصف . . .

– إن الظلام معنى مُوحِش ، لا يدركه إلا المبصرون ! . . . فمتى عرفتِ النور أدركت ما يعانيه غير المبصرين من معنى الظلام !

– إذن لا سبيل إلى أن أعرف حقيقة الظلمة التى تحدثنى عنها إلا أن أكون مثلك مبصرة . . .

– وستبصرين ، فتعرفين . . .

– الإبصار . . . يا لله ! . . . أحس أنى أخشاه .

– ما خشيتك من أن تبصرى ؟

– أحس أنى به أتبدل خلقاً آخر . . . خلقاً لا صلة له بما فى مظاهر عيشى وعناصر كيانى . . . أتريدنى أن أفقد نفسى ؟ !

فتضاحك وهو يداعب بأنامله شعرها الموّاج ، ويقول :

وماذا فى أن تفقدى نفسك ، وأن تتبدلى منها نفساً أخرى أعرف بمتعة الحياة ، وأحظىَ بسعادة العيش ، وأقدرَ على استجلاء ظواهر الوجود . . . ما ضرك لو فارقتِ « هناء » البرارى والأدغال ، وغدوتِ « هناء » الحواضر والقصور ؟ أتزهدين فى رفاهة وَرَغد ؟ أترغبين عن جاه وسلطان ؟ !

وانساقت بهما الخطا ، والأمير يتحدث إلى فتاته حديثاً مستفيضاً يصف به ما يعدّه لهما الغد من مختلف المباهج والمتع فى عيشهما الجديد . ولما أبلغ الأمير فتاته مَشارفَ الكوخ ، أقبل عليها يَطبع على جبينها قبلة مستبشرة ، وقد تواعدا على أن يكون بينهما فى الغداة لقاء .

ومضت « هناء » إلى الكوخ تطرق بابه ، وهى فى نشوة من الأحلام ، وملتطم من الخواطر . . . وسارعت إليها مربيتها تقول : ما خَطبك يا بنية ؟

— أمر عَجب حدّثنى به الأمير .

— أىّ هُراء حدثك به ؟

— كان جادّاً فى توكيده لى أنى سأبصر . . .

فضربت المربية صدرها مدهوشة تقول : تبصرين ؟ كيف ؟

وَطفقتْ الفتاة تعيد على مسمع حاضنتها ما أفضىَ به إليها الأمير ، فقالت المربية لربيبتها : حبذا إبصارك يا بنية . . . إنه لحلم جميل ، ولكن

علينا أن نكون على حذر !

— مم نحذَر ؟

— ليس من الكياسة الإغراق فى التأميل . . . ربما خاب فأل الأمير !

فقالت « هناء » واجمة : ربما . . .

— كلنا يا بُنَيَّة سواء أمام العواقب المحجبة ، فلا أنا أو أنت ولا الأمير أو طبيبه بمستطيعين أن نستيقن علمَ شىء طواه غَيبُ الله . . . وليت شعرى ماذا عسى أن يكون إذا أخفق الطبيب فى مهمته ؟

— ماذا عسى أن يكون ؟ أظلّ كما أنا ، لم أخسر شيئاً . . .

— حقاً ، لا تخسرين شيئاً ، فإن إبه ارى لم يضف إلىّ جديداً أنتِ مفتقرة إليه ، ولكن هل يرضى الأمير بك شريكة لحياته إذا لم تستكملى إبصارك المنشود ؟ الأمير يريدك له وأنتِ ذات بصر .

— فإن لم أبصر ؟

— أخشى أن يجافيك يا بنية ، أخشى أن يصيبك منه ما أصاب أمك على يد أبيك من قبل . . . لا تحسبى أنى أسيء الظن بالأحداث ، أو أنى أتوهم ما ليس بواقع ، فالرجل لا يعزّ عليه أن يقارف ما طاب له من الآثام . . . إنه لا يتهيَّب الكبائر ، ولا يتعفّ عن الصغائر !

فقالت « هناء » فى صوت يخفضه الحياء : ولكنه يحبنى يا أماه . . .

— ربما كان لك الآن حبيباً ، ولكنه محبّ إلى حين ، وكل حب إلى مَلال .

— أيَملُّ المرء من يحبه ؟

— النساء يا بنية حبهن خالد ، فأما الرجال فإن قلوبهم تتلون ، وإنهم لا مقام لهم على ولاء ولا وفاء . . . تلك طباعهم ، هيهات أن يدوم لهم عهد ، وهيهات أن يظل حبهم مقصوراً على امرأة واحدة !

— أكل الرجال سواسية ؟ أليس فى الرجال وفىّ صادق الود ، حافظ العهد ؟

— الرجال جميعاً من طينة واحدة ، ذلك ما لَقَّنَنى إياه غيرى ، وذلك ما خبرتُه بنفسى . . . فَخلِّ عنك يا « هناء » سَرابَ الأوهام .

— هذا تشاؤمك بالرجال منذ عرفتك يا أماه !

— وإنى لأوصيك أن تتشاءمى مثلى ، فما فى التفاؤل بالرجال إلا شرّ ووبال .

— لا أتشاءم ولا أتفاءل . . . ولا أجدُ لهذا ولا لذلك من داعية . . .

— بل إنى أجد ريح التفاؤل بالأمير يَعمُر قلبك ، ولست أخشى عليك شيئاً كما أخشى أن تَزْكُوَ فى قلبك للرجل نزعةُ حبّ !

فانتفضت « هناء » وتعجلت تقول : ليس فى قلبى عاطفة له . . .

— احذرى أن يتسرب إلى قلبك حب هذا الأمير . . .

— إنى لا أحبه .

— هذا حسن .

— ولكنى لا أكرهه !

— هنا يبدأ الخطر . . .

فصاحت « هناء » : أىّ خطر يا أماه ؟

— إنه الخطر الفادح ، فاحذريه . . . لقد أبلغتك نصحى ، وعليك نفسك !

— حسبك . . . حسبك .

وما لبثت « هناء » أن استشعرت ساكب الدمع يتفجر من عينيها ، وقد زلزل الشهيق كيانها كله ، فدنت منها المربية تسندها إلى صدرها ، وتسرّى عنها قائلة : لا يَسؤْك حديثى يا بنية . . . إنى بك مشفقة ، ولست أعدل بإسعادك فى الدنيا شيئاً وإن عَزّ . . . لو أنى لمحت بارقة خير فيما يعرض عليك الأمير لكنت لك عوناً أىّ عون ، ولكن لى من السن والتجربة ما يجعلنى أفطنُ إلى سوء ما تتعرضين له ، وذلك سر تحذيرى إياك . . . وماذا فى الإبصار يغريك يا بُنَيَّة ؟ لعمرك إن عينيك لتتفتحان على مكاره وأسواء أنت الآن فى نَجْوَة منها بفقد البصر . . . قسماً يا بنية ما كنت لأضَنّ عليك بعينىّ كلتيهما لو كان لك فى الإبصار متعة أو جَدْوَى . . وماذا يغريك بالجاه والسلطان ؟ إنه وهم وزيف وغرور ، أتبيعين حياة

التحرر والطلاقة التى تنعمين بها الآن، لتشترى بها عظمة جوفاء تثقلها القيود والأغلال ، تحت إمرة جبّار مسيطر ، لا فكاك لك من سلطانه ، ولا أمان لك من طغيانه ؟ !

وتابعت الحاضنة حديثها متفننة فى القول ، مستقصية فى النصح ، والفتاة على صدرها ملقية برأسها تسمع ولا تُحيرُ من جواب . . .

وتعاقب يومان كانت فيهما الفتاة تغادر الكوخ فى ساعة السحَر ، وقد نبا المضجعَ بها من حيرة وضيق ، فتظل هائمة فى مكامن الغابة تخفى نفسها عن مَرْمَى النظر ، حتى إذا دجا الليل ، وانعقدت الظلمة ، سارَقتْ خُطاها إلى الكوخ ، متهالكة على الفراش .

وكانت مربيتها تنتظر عشيّة بباب الكوخ ، والقلق آخذ منها كل مأخذ ، فما إن رأت الفتاة مقبلة حتى اعتنقتها فى شغف ، وسألتها فى اهتياج : ما وراءك يا بنية ؟

— لا شىء . . .

— ماذا أبطأ بك ؟

— كنتُ أستمتع بوحدتى ، ناجية بنفسى . . .

— لقد فتّشتُ البقعةَ بحثاً عنك . . .

— لم أتجاوز البقعة !

— أخشى أن تكونى قد كتمت عنى أمراً . . .

– لا تحسبي أني لاقيتُ من أحد !

– خفّفي عنك ما تكابدين يا بُنَيَّة ، والله حافظك وملهمك سدادَ الرأى . . .

– اطمئني ، فلست أكابد شيئاً . . .

ومضت الفتاة إلى فراشها تترامَى عليه ، مطبقة جفنيها ، كأنها تتودد إلى المنام . . . والحاضنة حيالها ترقبها بعين التفحص والاستشراف ، فتدرك من سمات وجهها المضطربة ، ومن أنفاسها المتلاحقة ، أنها فى يقظة . . . وإن الحاضنة لتلمحُ شفتى الفتاة تختلجان ، كأنهما تريدان أن تنفرجا عن قول ، فتفطن الحاضنة إلى أن سؤالا يمورُ فى صدر فتاتها حبيساً يريد الانطلاق ، فيبعثها الإشفاق على أن تقول فى لهجة من يتحدث إلى نفسه : قَدِمَ الأمير يسأل ، فأخبرته أن ليس فى الكوخ من أحد . . .

وأمسكت المربية تتبينُ أثر حديثها عند الفتاة ، فسمعتها تقول فى صوت الحالم : حسناً فعلت !

وساد الصمت بينهما ، ولكنه صمت يحتدم فيه القلق والاهتياج . . .

ومَر يومان آخران ، والفتاة لا تكلم حاضنتها إلا نَزْراً ، وقد ازدادت على نفسها انطواء ، تخرج فى مطلع الفجر إلى مكامن الغابة ، وترجع فى دَجْوَة الليل إلى الكوخ ، مصروفة فى نهارها كله إلى وِجدانها تستمع إلى هتافاته ومناجَيَاته . . .

يا لله من ذلك الكائن العجيب الذى هبط عليها ، فبدّل أمنها خوفاً ، وأحال سكينتها قلقاً . . . لقد أشاع هذا الرجل فى نفسها إحساساً جديداً ذاقت منه ألماً لا ريب فيه ، ولكنه ألم لا تضيق به ، بل إنها لتجد له أنساً وراحة . وأرْوَحُ ما يكون هذا الألم لها حين يسلمها إلى البكاء ، فتنهلّ دموعها انهلالا ينسجم مع نشيجها الموصول ! وماذا يبكيها ؟ . . . ألأنها تريد احتماءً بهذا الرجل وركوناً إليه ، على حين أنها تجد هذا الاحتماء والركون محفوفاً بالمخاوف والأخطار ؟ أصادق هذا الأمير فيما أفضى إليها به ؟ أمخلص وفىّ ، أم ماكر خدّاع ؟ ويا تُرىَ ما حقيقة تلك البدعة التى راعها بها ؟ . . . أيكون لها فى الإبصار حقاً إسعاد جديد ، أم يكون فصل الخطاب بينها وبين ما تنعم به من عيش سعيد ؟ !

وتلك الدنيا الزاهرة الزاخرة التى يُفيضُ الأمير فى الحديث عنها . . . أليست هى مغامرة غامضة تَكمُنُ فيها الأهوالُ والمعاطب ، من كل جانب ؟ ! ما كان أجملَ دنياها الصغيرة الساذجة التى ظلت تحيا فيها حياة الطمأنينة والأمان ؛ وما كان أحفلَ هذه الدنيا عندها بأسباب الهناءة والإسعاد ! ولكن هذا الكائن العجيب الذى سقط عليها ، شوّه عندها ما عرَفته جميلا ، وضيّق ما ألِفتْه رحباً . . . وإنها لتبرَمُ الآن بتلك الجنة التى كانت لها رَوْحاً وريحاناً !

وما لها تشعر — بعد أن لم تكن تشعر — بأن حاضنتها أصبحت اليوم

تثير غضبها ، وتعكر عليها صفوها ، وتجعل عيشها نكداً وغماً ؟ ! إلى أين تلجأ ؟ وبمن تحتمى ؟ وارحمتاه لها !

إن أفكارها لتثير على أعصابها حرباً شعواء ، وإنها لتنهض من مكمنها فى زوايا الغابة ، لا تدرى لقدميها وجهة سير ، فتمضى وقتاً فى جولة شعثاء ، وإذا هى تُلفى نفسها قد أوشكت أن تبرز لأطراف الغابة ، فتدنو من مكان نعمتْ فيه يوماً بذلك اللقاء الطارئ الطريف الذى كان من جرّائه ما كان !

وما تكاد تستيقن أنها أشرفت على ذلك المكان ، حتى تتفزع راجعةً القهقرَى إلى مكامن الغابة ، تلتمس عندها حمايةً لنفسها من نفسها . . .

أما الأمير فقد ترك « هناء » فى آخر مرة لقيها فيها ، وقد امتلأت نفسه ثقة بأنه قد اقتنصَ ذلك الظبيَ الشَّرود ، وأنه لن يستعصى عليه بعد اليوم . . . ليروَضنّ هذا الظبى ، وليطوّعنه حتى يجعل منه أليفاً طريفاً . . . ما أكبر زهوه بأنه سيحمل إلى قصره صيداً لم يظفر بمثله صائد من قبل !

قضى الأمير ساعات ليله يَرْسُم الخطة ، ويدبر الأمر ، ويُمنى النفس . .

وفى موعد اللقاء من غده ، أقبل على الكوخ ينظر فتاته ، فلم يلفها فى انتظاره ، فلم يجد بدّاً من أن يطرق باب الكوخ يسأل الحاضنة عن

« هناء » ، فأعلمتْه المرأة بأن الفتاة غادرت كوخها فى رَوْنَق البكور ، فرجع الأمير إلى فُسطاطه ، تنساب به الخواطر . . . ولاحت على مُحيّاه ابتسامة يمتزج فيها الاطمئنان بالاعتزاز . . . ما برح الظبى يعاوده نفاره ، ولكنه فى الشباك مَصِيد ! . . . إنه لآت لا سبيل له إلى الإفلات . . . قليل من الصبر ، تستبين به جَلِيَّة الأمر .

وألزم الأمير نفسه بأن يتلهّى بالصيد هنا وهنالك ، بيد أنه كان فى الفينة بعد الفينة يرتاد أرجاء البقعة ، من حول الكوخ ، يترصد ويتحسس ، ولكن البقعة أبتْ أن تبوح له بسر الظبى النفور . . .

وفى ضحوة يوم ، والأمير بباب فُسطاطه ، تراءى له شخص الحاضنة يهرول نحوه ، فلما قاربت الحاضنة موقف الأمير ، بادرت إليه تقول :

أين « هناء » ؟ رُدّ ابنتى علىّ !

فألقى عليها الرجل نظرة دهشة ، وهو يجيب : ماذا تَعْنين ؟

— إنها عندك . . . أتريد أن تخفيها عنى ؟

فأمسك بكتفها وهو يقول :

كُفّى عن هذا الهراء . . . ما خَطبُ « هناء » ؟

— أليست فى خِبائك ؟ إنها لم تَبِتْ فى الكوخ . . . وما خلا الكوخ منها ليلة قبل هذه الليلة !

— إنى لم أرها منذ أيام ، فأين ذهبت ؟

فضربت المرأة صدرها ، وقد غلبها النشيج ، وهى تقول :

يا للنكبة ! . . . أين الفتاة ؟ اصدُقْنى بربك ، لاتمزق نياط قلبى !

ـ أقسمتُ ما رأيتها ولا احتواها خبائى ولا عرفت لها مذهباً . . .

ولكن اطمئنى ، فسنبحث عنها جميعاً ، وإنا واجدوها لا محالة .

وتقدم الأمير إلى أعوانه بأن ينتشروا فى أكناف البقعة ينشدون « هناء » وما لبث أن حَثّ خطاه فى طليعتهم يَذْرَع الأرض فاحصاً مستقصياً ينادى ولا من مجيب .

ولما انسدلت أستار الظلام عاد الأمير إلى فُسطاطه ومعه أعوانه ، منهوكى القوى ، مبهورى الأنفاس ، على وجوههم غَبرة اليأس والإخفاق.

وكرر الأمير بحثه واستقصاءه هو وأعوانه أياماً موصولة ، دون أن يَقفوا « لهناء » على أثر . . .

واشتد الضيق بالأمير ، وملأ عليه الهم أقطارَ نفسه ، فلم يكن يَطعَم الراحة والسكينة ، واشتعلت أخلاقه عنفاً وحدّة ، فتحاماه أعوانه ، وأدركوا ما يعانيه من محنة عسراء . . .

وأصابت الحاضنة لُوثَة ، فكانت تَهذى ، وكانت تتهجّم على مقام الأمير بمنكر القول ، تزعم أنه السبب فيما جرى ، فلم يَبقَ للأمير عليها صبر ، ولم يجد بدًّا من إقصائها فى مَعزِل ، حتى لا تقع عليها عينه ، ولا يرقى صوتها إلى سمعه .

وارتحل الأمير عن البقعة ، قافلا إلى قصره .
ومضت به ركائب الأيام . . .

وراع أعوانَ الأمير ذلك الانقلابُ الذى طرأ عليه ، إذ كفَّ عن الترحّل ، وعفَّ عن الصيد ، بل لقد حَرّم على أهل إمارته أن يسدّدوا سهماً إلى ظبى شرود !

العوّامة

« الإسكندرية » موطنه ، والتجارة مجد أسرته ، ولكنه هو لم يتجر قط . . .

وليس الرجل بزاهد فى كسب ، ولا راغب عن مال ، وإنما زُهْدُه فى الجهد ، ورغبته عن السعى ، فهداه فكره إلى أن يبيع متجره ، ويستبدل بثمنه مبنى وافر الرَّيع .

حبَّذا أطايبُ العيش عنده ، ولا حبذا ما فى الدنيا من إرهاق وإعنات يرفضّ له عرق الجبين . . .

إنه من أولئك النفر السعداء الذين تجلى لهم سر الحياة ، يؤمنون بأنها ممرّ ، وأنها يقظة ساعة بين نومين : أزلىّ ، وأبدىّ . . . فما أجدر الحىّ بأن يجعل تلك الساعة لقلبه متعة ، ولنفسه رضا . وما أخسر صفقة من يحيل دنياه جحيما من المتاعب والجهود !

« عمران أفندى » هذا قنوع فيما رسمه لنفسه من حدود ، أو بالحرى فيما رآه محْدقاً به مفروضاً عليه من هذه الحدود .

لئن كان اليوم تزايلت عنه مهنة التجارة ، لقد بقيت له على الرغم

من ذلك شيمة التاجر ... فهو فى حياته اليومية الراتبة لا يُعْفِى نفسه من محاسبة ومساءلة ، ماذا أنفق ؟ وماذا اقتصد ؟ ويده مقبوضة بالطبع ، لا تنبسط إلا بعد مشاورة ومداورة يتخاصم فيها العقل والهوى .

وللرجل مكانة بين جيرته فى حىّ « العطارين » ، يتمثلون له وقوفاً إذا بدا ، ويبدءونه بالتحية إذا أقبل ... وما كان لشحّه أن يُقِل حفاوتهم به ، بل لعل هذا الشح كان مجلبة لأنظارهم نحوه ، والتفافهم حوله ، فهو فى حساب أنفسهم كفء لأسباب الغنم والإثراء ، جدير بالتقدير والإعلاء ، وحَسْبهم من فضيلته أنه ما كان امرأ سَوْء ، وما فَرَطت منه أذيّة لأحد ... فما للناس وله ؟ وماذا يريدون منه فوق السلامة من شره ؟ ذلك هو الخير كل الخير !

وكان « عمران أفندى » قد استبانت فيه بدانة ، وأدرك أوصاله ترهّل ، فظهرت حول عينيه طيّات ذوات ظلال ، وتَدَلَّى دون ذقنه لغد مهيب ، ونتأت تحت قبائه كرش تزيده مهابة . . . وليست الخمسون التى قضاها الرجل على أديم الأرض هى التى أحدثت فيه تلك التعاجيب ، وإنما هى وليدة حياته التى أوجبها على نفسه ، حياة التقعّد والخمول .

ولسنا نغمط الرجل حقه ، ونجحده نشاطه ، فعلينا أن نسجل له دأبه على الخروج عصر كل يوم إلى حانوت المعلم « موسى » الحلاق ، قاطعاً بخطوه الوئيد ذلك الطريق القصير بين البيت والحانوت . . .

وهناك يقضى الأصائل ، آنساً بذلك المكان الهادئ ، مجاذباً روّاده ألوان الحديث . وكيف لا يُؤْثِر حانوت الحلاق على كرسىّ فى مشرب ، وإن هذا المشرب ليقتضيه إنفاقاً لابد منه ، ما أغناه عنه !

والرجل يحمد الله على نعمائه ، ويقيس هذه النعماء بتلك المقاييس التى اطمأن بها فى عيشه : الوجبات الثلاث يصيب طعامها فى شهوة وإقبال ، وضجعة القيلولة يقصّر بها أمد النهار الفارغ ، ونومة الليل العامرة بالغطيط لا يشوبها أرق ولا قلق .

وكاد الرجل — فى رَيْق شبابه — أن يستجيب لنداء الشباب ، فيختار له زوجاً كأترابه ولداته ، ولكن شِيمة التاجر هبتْ بين جوانحه تراقبه وتحاسبه ، وتَرُوعه بألوان النفقات والتكاليف ، وأبت عليه فطنته أن يستسلم لزوجيّة وراءها أحمال المتاعب والمشاقّ . . . وكيف تسوّل له نفسه الزواج ، وهو امرؤ تجلىّ له من سرّ الحياة أنها راحة وسكينة وهدوء ، ومن ثَمّ اكتفى « عمران أفندى » بنصف دينه ، دون أن يستكمل بالزواج نصفه الآخر ، خشية أن يخسر الدين كله فى هذه المغامرة . وما كان له أن يغامر ، وهو كما علمت يحمل بين ضلوعه رُوح تاجر هيّاب قَنُوع .

ولا تحسبنّ الرجل كان خالى الحياة من تجديد ، فالحياة تملى على كل إنسان مهما يكن من تحفظه لوناً يخرج به عن جمود المألوف . . .

وكان تجديد الرجل يتمثل فى رحلة صيفية يقوم بها ضحوة كل يوم فى أشهر القيظ ، فيقتحم ذلك السُّور المضروب عليه بين البيت وحانوت الحلاق ، ويمضى بعيداً غير لاو على شىء ، متجهاً إلى مقرّ اختاره على شاطئ البحر فى منطقة « الأنفوشى » ، وهنالك يجتلب من المشرب القريب كرسيًّا له ، فيجلس عليه ، خالياً بنفسه ، مستنشياً عبير الماء ، عن كثَب من مَدّات الأمواج .

وبينا هو يطوف بأنظاره بين السابحين فى البحر ، إذا هو يسبَح فى آفاق رقيقة تنتهى به إلى غفوة حالمة .

على هذه الوتيرة كان يحيا « عمران أفندى » : مثالا فى الدقة لا يعلوه مثال ، وافر الحظ من طمأنينة النفس ورخاوة البال ، آمناً فى سِربه من عبث الأحداث وتقلبات الأحوال .

ويوماً والرجل على أهبة الإياب إلى بيته ، بعد أن استوفى متعته من البحر ، فاستنشق نسيمه ، وراقب الضاربين فيه ، وغفا غفوته المحببة . . . إذا هو تُجاه بائع جوّال يتخطر ، وعلى كتفه حلقة من المطاط يطلق عليها اسم « العوامة » ، يتخذها من هو حديث عهد بالسباحة ، ليستعين بها على المرانة والتمرس ، فتحميه من الغرق ، وتتيح له أن يلعب بالموج كما يلعب صيدُ البحر !

ووقف البائع يتمدّح « بالعوّامة » ، ويتغنى بما لها من كرائم المزايا ،

ويتحسّر على أنها تباع بثمن بخس يبعث على الدهشة والعجب ، ولم يجد « عمران أفندى » بدّا من أن يضيف إلى معلوماته جديداً فى شأن هذه الحلقة من المطاط ، وقد استرعى نظره منها أنها كبيرة الحجم ، جيدة الجلد ، كأنها زورق صغير يستطيع السابح أن يمتطيه فيغالب به دفق العُباب .

ولما لمح البائع نظرة الرجل تنساق إلى « العوامة » فى تحديق ، أيقن أن هذه النظرة فرصة سانحة للاستغلال ، فأخذ يعرِض جوانب « العوّامة » تحت وهج الشمس فتلتمع حمرتها وتتضرج ، ثم راح يغمز مدارها فتهتزّ ، مؤكداً أنها على ضخامتها ومتانتها سهلة التناول طيّعة المِراس .

وما لبث البائع اللبق أن رغب إلى « عمران أفندى » فى أن يتحسسها ليختبرها ، وهو يقول :

انظر وتعرّف . . . ليس حتما أن تشترى ، فلتتفرج .

ولم يجد « عمران أفندى » ضيراً عليه فى أن يمدّ يده إلى الحلقة يجسّها ويتفحصها ، وما عتم أن ردها إلى البائع ، قائلا : حقاً إنها متينة .

— وثمنها زهيد .

— لا بأس .

— إذن لا تتركها تفلت من يدك . . .

– لا نفع لها عندى .

وحث « عمران أفندى » خطاه ، فجأر البائع يلاحقه بقوله :

يا سعادة « البك » لو اشتريتها ورميت بها فى بيتك لكنت الرابح .

– لا أضع مالى فيما لا نفع له عندى .

– قسماً يا سيدى إنها لقطة . . . وقد كان معى منها عشر حلقات ، فبعت تسعاً بضعف الثمن الذى أعرضه الآن ، ولولا أن هذه الحلقة هى الأخيرة ، وأريد التخلص منها والتفرغ لشأنى ، لما رضيتُ أن أعرِض عليك شراءها بثمن بخس . . . عشرين قرشاً .

فتابع الرجل سيره يقول : لا أريد . . . لا أريد .

وحاصره البائع بألوان من الإغراء ، وهو يظهر له الرغبة فى المساهلة ، حتى عرضها عليه بعشرة قروش . . . فعجب « عمران أفندى » من أمر هذا البائع ، وأيقن أن فيه حمقاً وغباوة ، فهو فى تقديره قد كسب ببيع الحلقات التسع كسباً غير قليل ، فهان عليه أن يبيع الحلقة العاشرة بيع الغبن والخسار .

وأطمعه ذلك فى أن يستغل حمق البائع وغباوته ، فأبدى إهمالا وإعراضاً ، فما زال به البائع حتى قال له :

كم قرشاً تدفع ثمناً لهذه « العوامة » ؟

فندّت من فم « عمران أفندى » هذه الجملة فى غير مبالاة ولا عَمْد :

لا تساوى إلا خمسة قروش .

فصاح البائع يقول :

هذا حرام يا سعادة « البك » . . . خمسة قروش ؟ !

فأقسم سعادته قائلا : حلفت لا أدفع أكثر من خمسة قروش .

وتابع خطوه يعلو بصدره ، وإذا هو يرى الرجل يدركه قائلا :

خذها يا سيدى حتى أنصرف لشأنى ، والله يعوّضنى منها .

ومثّل « عمران أفندى » يقسم نظره بين « العوامة » وبائعها ، فلم يبق لديه شك فى أن الصفقة رابحة ، وأن خمسة قروشه لن تذهب سُدى.

واشترى « العوامة » ، محتملا إياها إلى الحىّ الذى يقطن فيه ، وشاء ألا يذهب إلى البيت قبل أن يمر بحانوت صديقه الحلاق ، لكى يريه اللقطة التى سقط عليها فى يومه لقاء ثمن رخيص ، فامتدح الحلاق صنيع صاحبه ، وهو يعدّدُ محاسن الحلقة وفوائدها ، فشاعت الغبطة فى أعطاف الرجل ، ونهض « بعوامته » إلى بيته محبور النفس بما كسب .

وصبحاً جرى « عمران أفندى » على عادته فى الذهاب إلى شاطئ « الأنفوشى » يتخذ مجلسه المألوف ، وألفى نفسه هذه المرة يرقب روّاد الشاطئ فى حميّة وحماس ، وهم يتقلبون فى ملتطم الأمواج ، وبخاصة من كان منهم يتطوق بحلقة المطاط فى السباحة والعوْم ، ولبث على حاله يراقب ويتقصّى ، دون أن تذوق عينه الغمض كما كان شأنها من قبل .

وفى مرجعه إلى البيت عند الظهيرة ، كان يحس نشطة الشباب وبهجة الحياة ، فما إن احتواه بيته ، حتى اختلع ملابسه ، وعمد إلى « العوامة » ينتطق بها حيناً ، ويتقلدها آنا ، ويقتعدها مرة ، محاكياً فى ذلك صنيع المستحمّين والسابحين بحلقات المطاط فى البحر ، وهو يوالى الضرب بيديه ، والدفع بقدميه ، كأنه يغالب الموج الزاخر .

وتتابعت أيام على الرجل ، وهو يمثّل هذا المشهد لنفسه خاصة فى كِسْر بيته ، حين يئوب إليه بعد انقضاء جلسة الشاطئ .

ومرة وهو يداعب حلقة المطاط ، عاجله ضيق ، وسأل نفسه : أتراه قد بذل قروشه ثمناً لهذه الحلقة ، لكى تظل فى زاوية من البيت ألعوبة ، أو زخرفاً وزينة ؟ !

وبينما هو عائد ظهر يوم إلى البيت ، وجد خطواته تعرج على متاجر الثياب ، وإذا هو يشترى لنفسه لَبُوس البحر ، وأعطافه تترنح من حبور وابتهاج . وأمّ بيته ، مسارعاً إلى خلع ملابسه ، وارتداء لبوس البحر الجديد ، وما هى إلا أن أقبل على « العوّامة » يعابثها وتعابثه ، كأنما هو طفل هاجتْه لعبة طريفة ليس له بمثلها عهد . ومثل « عمران أفندى » قُبالة المرآة ، يتطلع إلى خياله فى ذلك المظهر الجديد ، وجعل يتساءل : متى يهبط البحر ؟ وفى أىّ منحى منه ؟ أيختار شاطئ « الأنفوشى » ؟ واستعاذ بالله من أن ينزل هذا الشاطئ الذى يجمع الأخلاط من

الجماهير ، وما يليق ذلك به ، وهو وجيه القوم ، وصاحب المكانة الكريمة فى الحىّ . ولمع فى خاطره اسم « سيدى بشر » فماذا يمنعه أن يختار الشاطئ هناك ؟ . . . لقد طالما سمع باسمه ، وعرف أنه مثابة الأخيار ومهبط السَّراة ، فليكن له ثمة مكان ... وهرع إلى صديقه « موسى » الحلاق يستنصحه ، فجعل الحلاق ينظر إلى صاحبه نظرة الدهشة والعجب ، ولكنه ما لبث أن انساق فى تفكير وتدبير . . . وأشرقت على محيّاه ابتسامة غامضة ، وأقبل على « عمران أفندى » يربّتُ كتفه ويقول : نعم الاختيار . . . ولكنى أحب لك أن تستأجر ظلة(١) خاصة بك ، فإن مقامك يقتضى ذلك ، كما يفعل أندادُك فى رفعة القدر.

ــ أستأجر ظُلَّة ؟ ... إنى سأتردد على البحر بعض أيام ، أفمن أجل فترة قصيرة أستأجر ظلة خاصة ؟

ــ وأين تخلع ملابسك إذا أردت النزول فى البحر ؟ وأين ترتديها حين تخرج إلى الشاطئ ؟ أفترضى أن تفعل ذلك على أعين الناس كما يفعل الدَّهماء ؟

ــ لا بد إذن من استئجار ظلة ؟

ــ ولم لا ؟ أتحسب أن الظلة نفعُها قليل ؟ إنك تستطيع أن تمكث فيها عامة يومك ، فتكون لك مسكناً ومتنزهاً طوال الصيف . . . فى

---

(١) كابينة

مُكنتى أن أحصل لك على ظلة بأجرة لا تذكر . . .

– ننظر فى الأمر .

– إنى سأخدمك فى هذا الموضوع .

وفى عصر غد ، طرق الحلاق باب « عمران أفندى » مبهور الأنفاس ، وهو يقول له : تدارك الأمر قبل فواته . . . فرصة لا تعوّض . . . إنك رجل موفق ، وطريقك دائماً ميسَّر .

– ماذا فى الأمر ؟

– ظلة جميلة ، كأنها بيت أنيق ... فى منطقة «المندرة» ، أنظف بقعة فى الشاطئ على امتداده ، وأما الكلفة فلاشىء ، بل هى باب ربح خصيب .

– كيف ذلك ؟

– إنها ظلة اضطُرَّ صاحبها إلى عرضها للبيع بثمن ضئيل ، فإذا اشتريتها أجَّرتها لغيرك وقتاً ، واتخذتها لنفسك وقتاً ، وإن أجّرتها فى نصف الموسم وحده رَبِح موفور .

– أنا أشترى ظلة ؟

– يا سيدى ، لقد كسدت المتاجر كلها ، إلا تجارة الظلل على الشواطئ ، فقد أصبحت هى الرابحة الرائجة ، والناس يكسبون المئات والألوف من شراء الظلل ومن تأجيرها . فجرب حظك ، ولا تدع هذه الفرصة تفلت من يدك ، ولا خسارة عليك إطلاقاً فى تلك الصفقة .

ـ ننظر فى الأمر .

ـ عليك أن تخبرنى غداً قبل الظهر ، فإن المتنافسين فى شراء الظلة كثير . وأخشى أن يظفر بها قبلك أحد .

وأرِق الرجل ليلته محتدم الفكر لا يستقرّ ، فهو يستعيد حديث الحلاق ، ويزن هذه المغامرة بمختلف الموازين . فلما ارتفع النهار ، همّ بالخروج ، فصادفته « العوامة » فى ركنها كأنها تناديه ، وعن كثب منها لبوس البحر مخططاً بالحمرة القانية كأنه يسترعى إليه نظره .

وفيما هو مهتاج المشاعر ، يرجع البصر هنا وهناك ، إذ سمع صوت صديقه الحلاق بالباب يقول : افتح يا « عمران أفندى » . . . افتح .

ودخل الحلاق يُبادر الرجل بقوله : كادت تقع الكارثة لولا لطف الله ، ولولا فطنة صديقك المخلص لك الساعى لخيرك . . .

ـ ماذا ؟ كفى الله الشر !

ـ رجل من الكبراء عرض ثمناً غالياً للظلة ، فتداركت الأمر ، وقلت لصاحبها : « إننا اشترياها منذ أمس ، وكان الكلام كلام رجال » وأعطيته العُرْبون ، وما زلت به حتى قَبِله . . .

ـ أدفَعْتَه له فعلا ؟

ـ أكنت تظن أنى أقصّر فى ذلك ، فأضيع عليك تلك الفرصة النادرة؟ فارْتج على « عمران أفندى » وفغر فاه . . . فاسترسل الحلاق فى

كلامه : أنت تعرف أنى لم أرد إلا مصلحتك ، وما فعلت ذلك لغرض ، فلست مطالبك بسمسرة ، وحسبى أنى قضيتُ لك حق الصحبة ، ورعيتُ لك واجب الود . ثق أن الصفقة رابحة كل الربح ، وسيعود عليك من الرَّبح أضعاف ما أديت من ثمن .

وبعد يومين اثنين كان « عمران أفندى » فى ظلته الجديدة ، يدق مسماراً كبيراً ليعلق به حلقة المطاط ولَبُوس البحر . . . ثم جعل يتفقد أرجاء الظلة الخالية ، ويتنقل فى نواحيها فترة بعد فترة ، وبجواره صديقه يزيِّن له ما صنع ، ويبارك له المكان .

وترافقا يجوزان بالظلل المجاورة ، والحلاق يُرى صاحبه ما احتوته من أثاث ، وهو يقول : لم يبق إلا أن تعمُر ظلتك ببعض ما يلزم من متاع ، وفى السوق من أثاث المصيف أشياء جيدة . . . رخيصة !

ورجعا معاً إلى المدينة فى أخريات النهار ، يجوسان خلال سوق الأثاث ، فاتخذت الظلة بعد أيام حلة قشيبة تسر الناظرين . . .

وتجلىَّ « عمران أفندى » على بابها متربعاً على كرسىّ من كراسى المصيف ، وهو يتفرّس فى المستحمين ، منتشياً بذلك المنظر الرائع ، مستشعراً متعة الانطلاق فى مزدحَم الماء . وقد مدّ يده إلى حلقة المطاط يداعبها فتلين لغمزاته ، وكأنه يواعدها على الترافُق فى اقتحام البحر .

وبات الرجل ليلته مُزْمعاً أمراً لم يعد منه بدّ . . .

وبكرةً قصد الظلة ، فوقع نظره أول ما وقع على المسمار العظيم العامر بحمله ، وقد هبطت عليه أشعة الشمس ، تتوهج بها حلقة المطاط والخطوط الحمر فى لبوس البحر . . . فانشرح لذلك صدر الرجل ، وألقى ما عليه من ثياب ، وما أسرع أن ارتدى اللبوس البحرى ، وتطوّق « بالعوامة » وخرج فى ثقة وتؤدة ، يبعثر نظراته ذات اليمين وذات الشمال .

وسار متبختراً إلى منحسَر الماء ، وجلس باسطاً قدميه لا يكاد ينالهما الموج ، وقد تجمعت من حوله لمة من الشبان اجتذبتهم هذه الشخصية الطريفة ، وكانوا يدفعون بأجسادهم إلى البحر فى جسارة وجُرْأة ، ذهوباً وجيئة .

وأطال « عمران أفندى » فترة جلوسه لا يتقدم ولا يتأخر ، فأقبل عليه أحد أولئك الشبان يقول فى تضاحك وتحبّب :

يبدو أن سعادة « البك » لم ينزل البحر قط .

فرفع الرجل وجهه إلى الشاب يقول فى سطوة :

أنا ؟ . . . إن البحر يعرفنى قبل أن تولد يا بنىّ !

— وهذه العوامة ؟

— كل ما فيها أنها تعين على تأدية بعض الحركات الرياضية ، والألاعيب السباحية . . .

وتلفت حواليه ، فإذا الشبان ينصتون إليه ، ويحدّقون فيه ، فما هى

إلا أن ألفى نفسه ينهض ، وكرشه تشق له الطريق ، مستقبلا دفعات الموج الرجراج ، تلاحقه صيحات الشبان هاتفين مصفقين .

وبغتة دارت به موجة عارمة ، فألقته فى اليم ، وما كاد يستفيق من غمرته ، حتى عاجلته موجة أخرى تتوغل به فى صميم الماء ، فملكت الرجل دهشة ، وسرت فيه رهبة ، واستبد به ارتباك ، وهو يتلقى على وجهه ضربات اللجج الدافقة ، فأحس أنفاسه تحتبس ، وعينه تغيم . . وتفحّص حلقة المطاط بيده يستوثق ، فاطمأنت إليها نفسه ، وازداد بها تعلقه وتشبثه ، ولكن الماء ظل يعدو عليه لجة بعد لجة ، فيكاد يخفيه ، وهو يعالج الخلاص ما وسعه الخلاص . وازدادت الحال بالرجل سوءا على سوء ، فلم يجد له من عزم ، وحاول أن يصيح مستغيثاً ، فلم يجد له من صوت . . . وتحسس العوامة من حوله ، فإذا هى قد أفلت من جوفها الهواء ، وإذا هو يتهاوى الى الأعماق .

وفى غداة غد أصبحت ظلة «عمران أفندى» يجثم فيها الصمت والكآبة .

وتسللت أشعة الشمس الى تلك الظلة ، فسقط أول شعاع منها على ذلك المسمار العظيم يحييه تحية الصباح ، بيد أن المسمار كان فى شُغُل عن التحية بوحشته واكتئابه ، فقد لبث وقته الأطول يسائل نفسه : ماذا أبطأ بلبوس البحر وحلْقة المطاط ؟

ولكن سؤاله هذا ظل بلا جواب !

هَدِيَّة

كيف لا تكون « حسنية » زوجة سعيدة ؟ لا سبيل إلى الشك فى سعادتها ، فهى تحب زوجها ، وزوجها يحبها ، والودّ بينهما أوضح من أن يحتاج إلى دليل . حياة مطمئنة ، تهادت بهما وادعة رفيقة خلال السنوات الخمس التى قضياها زوجين ، لم يعكر صفو علاقتهما شوْب ، ولم ينشَب بينهما كبير خلاف .

كانت « حسنية » تستمرئ هذه الأفكار هانئة مغتبطة ، وهى ماثلة فى مستشرَف الدار ترمى بنظرها إلى الأفق البعيد . وما كانت هذه أول مرة تتحدث فيها إلى نفسها بما تنعم به من هدوء بال ، فإن المستشرف طالما سجل لها طمأنينة قلبها ، وصدرُها تتناجىَ فيه تلك الخواطر الرقاق .

بيد أنها على الرغم من ذلك كله ، لا تملك أن تكتم الآن ما تحس به من طارئ جديد . . . من قلق لا تعرف له مَأتَى .

وشرد بها الفكر . إنها وفية لزوجها ، وإن زوجها وفىّ لها أيضاً ، لا شبهة فى وفائه ولا ريب ، وماذا بعد الوفاء ؟ حَسْبُ الزوج أن يكون

وفيًّا ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! الزوجة فى مُكنتها أن تغفر لرجلها كل ما قد يسوءها به من متاعب ومناكدات ، إلا أن يخونها ، فما للخيانة باب إلى الغفران . ليست هذه الخيانة إلا قَذيفة صائبة تهدم عشّ الزوجية على رأس صاحبيه جميعاً ، فلا تدعه إلا هشيماً تذوره الرياح .

أى جديد فى حياة « حسنية » يسوّغ لهذا القلق أن يغشى أفقَ حياتها الصحو ؟

لقد فَصَلَ زوجها عن الدار فى الغداة ، كما تعوّد ، وِجهته مقر المحكمة التى يستقبل فيها قضاياه ، وتحت إبطه حقيبة المحاماة . لقد أصاب الرجل فَطوره مع زوجه ، وما كاد يهم بالخروج ، حتى أودع خدّها قبلة المحبة والوفاء . . .

كل شىء يجرى فى عنانه ، كما هو مألوف ، إلا تلك الغاشية من القلق تحسها « حسنية » واغلة تغزو حصنها الآمن المكين . . . القلق الصحيح لا يساور الزوجة إلا حين تظن بزوجها الظنون ، فإذا هو فى حِسبانها غير حافظ للأمانة ولا راع للعهد . . . وإن « حسنية » لواثقة بزوجها أى وثوق ، فكيف لهذا القلق العابر أن يكون ؟ ترفعت « حسنية » عن تلك الصغائر التى تهافت عليها الزوجات الغريرات ، فما سوّلت لها نفسها أن ترتصد لرجلها ترقب حركاته وتصرفاته ، أو تؤوّل ما يلفظُ من قول ، أو تتفقد ما له من خاصة أوراق ، أو تتفرس فى ملامحه لتستشفّ

سريرته الخافية . فى معتقد « حسنية » أن الصراحة والمجاهرة رأس الحكمة ، وأن الحيل والمداورات لا تليق بكرائم الزوجات .

هذا زوجها يقسم حياته قسمةَ مناصفة ، فيهب زوجته شطرها ، ويحتفظ لقضاياه بالشطر الآخر ، وليس لديه بعد ذلك من فَضْلة يسخو بها على أحد ... إنه محام نابه الذكر ، شَهِدَتْهُ يوماً فكان عندها مثار إعجاب : طلاقة لسان ، وسرعة بديهة ، إلى جبين مشرق ، ونظرات تتوقد ، وفوق ذلك كله زىّ أنيق يدل على ذوق رفيع . وكان بينهما الزواج . فواصل الرجل ما هو معهود من أناقته ، ولكن الزوجة تلاحظ اليوم أنه أحرص على التأنق فى الملبس ، والتفنن فى التطرية ، وما كان لهذه الظاهرة أن تثير فى نفسها شيئاً ، فهو من أجلها يتأنق ، ولها يتطيب ويتزين ، وليس لذلك مغزى إلا أنه يبتغى مَرْضَاتها بكل سبيل .

زوجها فى رائعة شبابه ، وفى مستهل سعيه ، هدفه أن يدين له شرف الشهرة ، وأن يتوافر له مجدُ الثراء ، وهو إلى هدفه ناشط الخطو يشق الطريق ... عنده أن الشهرة والثراء توأمان ، فمن كان مشهوراً سلك إليه المال سبيلا ، ومن كان ذا مال تواثبت إليه الشهرة من كل مكان ، فحيثما تجدْ أحدهما تلق الآخر فى رِكابه ... وكان هذا الزوج حريصاً على التماسهما معاً فى آن ، ليظفر بهما معاً على أوسع

نطاق ، وإنه لبالغ مأربه فى وقت آت ، وكل آت قريب .

ومما جنح إليه الرجل فى حياته أن يكون مقتصداً ما قَدَر ، حتى كان إلى التقشف أميَل ، متوخياً أن تتجمع لديه فى أقصر مرحلة خميرة ثروة ، ونواة رأس مال . وكان لزوجته فضل مال انتهى إليها بالإرث ، وإنه لجدير أن يُعين ناشئاً فى بناء مجده ، وتنمية مورده ، إذا أحسن تشميره . . . وهل تأبى « حسنية » أن تسلم مالها لزوجها يدبره ، وهى التى وثقت به ، وآمنتْ بأنه لم يطلب يدها يوم تزوجها من أجل هذا المال ، ولكنه طلب يدها من أجل الحب ، حبه إياها ، من أجله وحده . . . لقد أحبها « أحمد » منذ النظرة الأولى ، وما برح بها مشغوف القلب على توالى السنين الخمس ، كشأنه فى اليوم الأول . . . لا غَرْوَ أن تطلق يده فى مالها ، وأن تشعر بالطمأنينة إلى حزمه وحكمته فى تصرفه . . . حقاً كانت فى بعض الأحيان تتبرم بإمعانه فى الاقتصاد ، وتَضيقُ بحرمانها ما تتطلع إليه نفسها من زينة وملبس . بيد أن الذى لا شك فيه عند « حسنية » أنها إن ضاقت اليوم شيئاً وتبرمت شيئاً فذلك لخيرها ولخير زوجها معاً فى غدهما المرجوّ .

شدّ ما تُزْهَى « حسنية » بزوجها محامياً مرموق الاسم ... وترى من حقه عليها أن تعينه على أن يكسب لها قُطوف ذلك الفخار ، فهى تهيئ له فرصة العمل فى البيت ، لا تشغله فيها بشىء ، فيقضى وقته

الأطول خالياً فى حجرته ، عاكفاً على أضابيره وأسانيده ومراجعه . . . وإن « حسنية » لتستهزئ بكل زوجة تغار على رجلها من عمله وما يتصل به : أوراقه التى يُودعها أكثر نظراته ، مكتبه الذى يستأثر بأطيب ساعاته ، دنياه الخاصة التى تملك عليه عواطفه ونزعاته . هيهات أن تغار « حسنية » من حجرة « أحمد » وما حوت ، بل إنها لتستشعر لهذه الحجرة وما فيها حرمة وتبجيلة ، فهى تتعهدها تنظيفاً وتنسيقاً ورعاية . وبخاصة ذلك الصوان الذى اختصه زوجها بأسرار عمله ، واستأمنه على جسام المستندات .

على أن « حسنية » مع ذلك تعاتب نفسها فى الفينة بعد الفينة على أن صورة هذا الصوان لا تبرح مُخيِّلتها ، مثيرة فى دخيلتها غرائب الوساوس . يا عجباً . . . إنه صوان كسائر ما فى البيت من أصونة ، ولكنها تراه يقبع فى زاوية من الحجرة جهم الصفحة ، كأنه صنم متأله يأبى أن يُطلع أحداً على غيبه . وحقاً لم تطلب « حسنية » إلى زوجها مرة أن يترك لها مفتاح هذا الصوان لتستجلى طواياه ، فقد عز على كبريائها أن تنزل إلى هذا المطلب ، وانتظرت أن يبادئها زوجها بذلك من تلقاء نفسه ، إلا أنه لم يفعل . . . ولكن هل لذلك كبير شأن ؟ وماذا فى الصوان إلا ما تعلم من أسانيد يخشى عليها زوجها الضياع ، فهو يحتفظ بها فى ذلك الحِرْز الحريز ، يُحكم إغلاقه ، ولا يدع لأحد أن ينفُذ إلى

ما فيه . وأكبر ما كان يسوءها من منظر ذلك الصوّان العتيّ أنها تشعر كأنه ينظر إليها عاقد الجبين شامخ الأنف ، يقول : إنى أعرف من أمر زوجك فوق ما تعرفين ، وأحفظ من أسراره ما ليس لك به علم .

لا تنسى « حسنية » يوماً وفدتْ فيه على زوجها وهو وراء مكتبه يعمل ، فألفت نفسها فى مجرى الحديث تطلق ضحكة مجلجلة ، ولما سألها زوجها : ماذا يضحكها ، والحديث جدّ ؟

أشارت إلى الصوّان تقول : حانت منى نظرة إلى هذا العجوز الدميم ، فأثار سخريتى . . . ألا تراه خليقاً بأن أضحك منه ؟

فابتسم الزوج مجيباً :

ربما . . . ولكنه على أية حال وفىّ أمين . . . وحَسْبه !

فصاحت « حسنية » تعقب عليه بقولها :

لم يعد لائقاً بالعصر الحديث ... وأنت رجل تجديد، فما إبقاؤك عليه؟

— وماذا تريدينى أن أصنع به ؟

— تستبدل به صوانا آخر محدّث الطراز .

— يعزّ على أن أفرّط فيه بعد هذه الصحبة المديدة .

— وما يدعونا إلى أن نسلمه ؟ . . فلننقله إلى المطهى يطمئن فيه إلى ركن . . .

فهمهم « أحمد » : فكرة صائبة . . . لها يوم نُنْفذها فيه .

ولكن الصوان ما فتىء قائماً فى مكانه لا يبرحه ، بل لقد ازداد على الأيام تأصلا وثبات مقام . . . فتراه « حسنية » كأنما يبدى لها عُنجهيته وصلفه ، وكأنما يتنفخ بأسراره وخباياه ، فتحسه يحدجها بأنظار زراية وشماتة ، ولسان حاله يقول : إنى أعرف من أمر زوجك فوق ما تعرفين ، وأحفظ من أسراره ما ليس لك به علم .

تواردت هذه الصور والذكريات والخواطر كأسراب الطير تحوم فى مُخيلة « حسنية » وهى فى مستشرف الدار ، تسرح النظر حيث تسطع الشمس على جبين السماء .

وما لبثت أن أحست بالصداع يغزو رأسها . . . إنه يعروها بغتة ، دون مسوغ ، وإنها لتضيق بهذا الصداع ذرعاً ، فلو تركته يستفحل لأحال يومها جحيماً من الآلام .

ليت زوجها الساعة حاضر ، إذن لأسعفها بحبة من ذلك الدواء القوى الأثر الذى اهتدى إليه منذ قليل ، وجربه غير مرة فى مقاومة الدوار الذى ينتابه من الكد والسهر . . . الدواء يستأثر به الزوج ، خشية أن تعبث به خدم الدار ، والزوج يصون دواءه فى مكان حصين ، فى ذلك الصوان العتى الذى يستأمنه — فيما يزعم — على مكنوناته ونفائسه .

وإن « حسنية » أمضت سنيها الخمس فى صحبة زوجها لا تذكر فى ساعة منها أن مفتاح الصوان وقع فى يدها ، فهو فى حوزة الزوج

لا يهمله هنا أو هنالك فى ليل أو فى نهار .

حتّم أن تصبر على الصُّداع حتى يَقْدَمَ الزوج بعد الظهيرة ، إلا أن الصداع لا يقف عند حد ، ولم يعد للزوجة باحتماله طوق ، وإنها لحماقة وبلاهة أن تبذُل نفسها لهذا الشقاء ، وما ينبغى « لأحمد » أن يرضاه لها بحال .

لو أنها استطاعت الآن أن تفتح الصوان المغلق ، وأن تحصل على حبّة من هذا الدواء الناجع ، لما كان عليها فى ذلك من تثريب . . . وهل يلومها الزوج الودود على أنها التمست سبيل النجاة من ألم وَجيع ؟

ولكن كيف تبتغى الوسيلة إلى الدواء ، وليس ثمة مفتاح للصوان ؟

وضربت جبهتها بغتة ، وإذا هى تهرع إلى حزمة من المفاتيح كانت تحتفظ بها فى أحد الصناديق ، وكان من دأب « حسنية » أنها إذا استغنت عن مفتاح لسبب من الأسباب لم تهمله ، وقدرت أنها ربما احتاجت إليه فى يوم يجىء ، فاجتمعت لها تلك الحزمة الوافرة من المفاتيح على كرّ الأيام . وما هى إلا أن ذهبت بتلك المفاتيح نحو الصوان العتىّ ، ووقفت قُبالته فترة لا تتحرك ، وهى تحس الهيبة والإحجام ، وخيّل إليها أن الصوان يعبِسُ أكثر مما هو عابس ، وكأنه يهتف بها ينهاها أن تفعل ، واشتدّ وجيب قلبها ، وثارت على نفسها محنَقة . . . ماذا يبطئ بها ؟ هذا صِوانُ زوجها ، شريك حياتها ، وما يملك الزوجُ

شيئاً إلا وهو للزوجة حقّ مباح !

واندفعت تجرّب المفاتيح ، وهذا العجوز العنيد يستعصى عليها ؛ وكأنه يحمى حوزته من غزْوتها . . . يا للويل ! . . . أتعيا هذه المفاتيح باقتحام تلك القلعة المتهدمة البالية ؟ وجدّت « حسنية » فى تجربة المفاتيح : أنفاسها تتدارك ، وجبينها يتندّى ، ثم أمسكت لحظات تمسح العرق ، وتتنفس من الأعماق .

وطار بها الفكر فى أجواء شتّى ، أواثقة هى بأن زوجها لم يلحقه تغيير ؟ لقد أخذتْ عليه بعض هنّات كانت منه عفواً بلا قصد ، فمرة سقطت من حافظة نقوده ورقة ، فلما انحنت عليها تريد التقاطها سبقها الرجل إليها ، ودسّها فى حافظته عجلان يقول :

لا تهتمى . . . ورقة ليست بذات بال . . . سند غير مهمّ .

أحقًّا كانت الورقة سنداً مهمًّا أو غير مهمّ ؟ ولماذا لم يدع زوجه تطلع عليها ؟

وهذه المكالمات التليفونية التى تلحظ فى بعضها أن زوجها أحرص ما يكون على الغموض والإبهام والاقتضاب . . .

قاتل الله ظنون السوء ، وما يجوز « لحسنية » أن تستسلم لأوهام على غير أساس .

وأحست الزوجة أن الصداع يكاد يفلق رأسها ، واضطربت المفاتيح

فى يدها ، فعادت تبتغى الحصول على الدواء بتجربة المفاتيح عَوْداً على بدء . وفوجئت « حسنية » بأن الغَلَق يلين فى دورة مفتاح ، وتحرك باب الصوان ينفرج ، فخفق قلب الزوجة ، وهى تواجه فى وضح النهار أسرار ذلك القلب الكتوم . . . وهبت عليها رائحة غريبة يشوبها غبار ، فمثلت تقلبُ النظر فى أرجاء الصوان يستبد بها الفضول . . . تعساً له من صِوان ترِب ! هذه أضابير مكدّسة ، وتلك رسائل مبعثرة ، وبينها دفاتر مهملة . . . ألا ما أنفس ذلك الكنز الذى يستأثر الزوج بحفظه ، ويحرص على إخفائه عن العيون ! حسبه الله من رجل . . . لماذا لم يعهد بصوانه إلى الزوجة تتعهده وتتفقده ، وتميط عنه ما يَعْلق به من غبرات ؟

ومدّت يدها إلى بعض ما حوى الصوان تقلبه فى عجلة ، وكلما فرغت من تقليب شىء مدت يدها إلى غيره تتفحصه ، وقد بدا عليها تحمس واهتمام . وتطاير الغبار إلى خياشيمها يزعجها ، ولكنها لم تعبأ به ، فهى مجدّة فى النكث والتقليب . . .

وعثرت يدها عفواً بلفيفة تكمن خلف الأضابير ، فجذبتها على الفور ، وكانت مغلفة بورق شفاف ، فنزعت الغلاف فى اهتياج ، فتجلت لها علبة مكسوة بالخمْل الأرجوانىّ مما تصان فيه الحلىّ ، فأخذ فؤادها يرجُف ، ونظراتها تضطرب ، وراحت تفتح العلبة ، فخطف

بصرها سوار مرصّع بالماس ... وزوتْ الزوجة ما بين حاجبيها تتساءل : سِوار يلقيه زوجها فى ذلك الجبّ ... بعيداً عن مَرْمَى النظر ... لمن يكون ؟

وكأنما طمح السوار إلى أن يجيب ، فكشف عن جانب من بطاقة رشيقة ، مدت « حسنية » إليها إصبعيها فانتزعتها تقرأ :

« إلى سوسن الحبيبة

من الوفىّ أحمد . »

وكأنما لمستها صاعقة هزت كيانها كله ، وتراءت لعينيها غمامة تحجُب عنها ما حولها ، ولكنها تمالكت ، وما عتمتْ أن أقبلت على السِّوار تحدّق إليه فى غيظ كظيم . . .

هدية مختارة ما أغلى وما أبدع . . . ولا سيما إذا جاد بها محام ناشئ يقتّر فى الإنفاق على بيته ، ويعوّل على ثروة زوجته !

ورفعت يدها تريد أن تقذف بالسوار فى عُرْض الحجرة ، وبين جنبيها مِرْجل يحتدم ، بيد أنها سمعت فى هذه اللحظة صرير باب الشقة ينفتح ، ووقع خطوات تتتابع . . . إنها خطوات « أحمد » !

وألفت نفسها تدس فى صدرها العلبة منطوية على السوار ، وعجِلت إلى باب الصوان تغلقه ، وانفتلت من الحجرة ، فإذا هى تلتقى بزوجها وجهاً لوجه .

وفطن الرجل إلى ما يبدو على سِمائها من شُحوب ، فسألها : ما بك ؟

فأجابت وهى تجاهد فى إخفاء الأمر :

سؤال عجيب . . . ماذا تقصد ؟

فرفع جفنيه يتفحصها ، وازدادت هى من غضب واضطراب ، فقال : سألتُك ما بك ؟ هناك شىء بلا ريب . . . صارحينى !

فتضاحكت مستهزئة تقول :

أصارحك ؟ . . ولم لا وأنت مثال الرجل الصريح ؟

— أقسمتُ إن فى الأمر سرًّا ، وإنك اغضْبَى !

فصاحت تواصل ضحكتها البشعة :

أترانى غضْبَى ؟ وهل يسوءك أن أغضب ؟

— ما هذه المعمّيات ؟

— دعك من المعمّيات ، وأجبنى : فيم عَوْدُك على غير المألوف ، ولما يمض على خروجك إلا وقت قصير ؟

— نسيتُ حافظة نقودى ، فرجعتُ آخذها .

— بل إنك رجعت لتتجسس على ، ولتعلم ماذا أفعل بأشيائك فى أثناء مَغيبك .

— ما خطر لى من هذا شىء . . . وما رجعت إلا من أجل حافظة نقودى التى نسيتها .

– بل إنك نسيت ما هو أهم . . . نسيت هذه !

وفيما كانت تنطق بجملتها الأخرى ، ضربت يدها فى صدرها تُخرج علبة السوار ، وتدفع بها فى وجهه . . . واستأنفت قولها مهتاجة :

هديتك لمن تحبّ . . .

فاكفهرّ وجه الرجل ، وهو يرمُق العلبة . ثم همهم :

أنتِ فتحت الصوان .

– فتحته ليكشف لى خداعك . . . مَن « سوسن » التى تخصّها بهديتك ؟

وتعالى صياحها ، وما لبث أن مازجه نشيج وهى تردد :

من ؟ أجبنى . . . أريد أن أعلم كل شىء . . . كفى ما كان من نفاقك ومن غشك !

وهجمت عليه تلكمُ صدره بِجُمْع يدها ، وهى تقول :

لن يكون لى معك بقاء بعد الآن !

واحتدّ شهيقها ونحيبها ، ثم أحست بقواها تنهار ، فتهاوت على أديم الأرض ، فاحتملها الزوج إلى المتكإ ، ومدّدها عليه وهو يقول :

لماذا تثيرين نفسك هذه الثورة ؟

وراح يسعفها ببعض المنعشات ، وهو يغيب عنها مرة بعد مرة ، ريثما يجلب كوب الماء ، أو قِنّينة العطر ، أو غيرهما من الأشياء .

ورافقها على المتكإ يدلك يديها ، ويربت كتفها ، ويلاطف جبينها ، ويناجيها بأعذب الكلام . . . فجعلت تستفيق شيئاً ، وهى ترفع جفنها وتطبقه ، وتبعث بعض التنهدات .

وقال لها « أحمد » فى تحنان :

لقد تعجلت فى الفهم ، وأسأت بى الظن .

فعالجت القول تردّ عليه : كفى ما كان !

— ستعرفين أنك توهمت شيئاً لا حقيقة له .

فسدّدت إليه نظرة محسور أسيف ، فأقبل عليها يكمل قوله واضح النبرات : أيدور فى خلدك أنى أخون عهدك ؟ أيكون جزاء الوفاء ظن السوء ؟ سامحك الله !

— وهذا السوار ؟

فصاح : إنه هديتى إليك ، وقد أفسدت علىّ خطتى وتدبيرى ، إذ كنتُ مزمعاً أن أفاجئك به الليلة ابتهاجاً بكسبى قضية الأقطان الكبرى.

— و « سوسن » ؟

— لا وجود لها إلا فى مُخيّلتك ، وقد راعنى أن تلفظى باسم لا أعرف له مسمّى .

فاشرأبتْ « حسنية » إليه متعجبة حيرى تقول :

البطاقة مكتوب فيها اسم « سوسن » . . . أين العُلبة ؟

وأبرز الرجل لها العُلبة ، وفتحها فى تؤدة ، فتجلى السوار باهر اللألاء يبدو خلفه جانب البطاقة ، فأسرعت « حسنية » تجذبها إليها ، وتقرأ :

« إلى سوسو الحبيبة .

من الوفىّ أحمد » .

فابتدر الرجل يقول : أليس هذا هو الاسم الذى كنتُ أناديك به فى مستهل عهدنا بالزواج ؟ ألست « سوسو » ؟ فأين « سوسن » التى تزعُمين ؟

وتراقصتْ ومضات الخواطر فى رأس « حسنية » ينفى بعضها بعضاً ، ويختلط بعضها ببعض . . .

أقرأتْ اسم « سوسن » حقّاً فى البطاقة ، أم خدعتها السرعة والتهيّج ، فحرفتْ الاسم ؟ . . . أصادقٌ زوجها « أحمد » فى أن السوار لها هدية وفىّ ؟

وتسامت ببصرها إلى الرجل تتفرس وتستوثق ، فواجهها بنظرة حنان وإخلاص ، وعلى معارف وجهه بشر واطمئنان . وما لبث أن اقترب منها ، حتى لامس فمه خدها ، وهو يهمس : أما زال قلبك علىّ غضبان ؟

وإذا شفاههما تتلاقى فى قبلة شيّقة ، وإذا « حسنية » تطوّقُ « أحمد » بذراعيها وهى تجيب : أنت أدرى بمكنون قلبى . . . !

فهرس

أبو الشوارب ٥
الحمـــراء ٣١
الديك ٤٧
كنا أربعة ٦١
بوذا « الرحيم » ٩١
الفأرة ٩٧
هنـــاء ١١١
العوامة ١٦١
هدية ١٧٥

٤٣٢ / ت / ١٩٥٣

أحدث مؤلفات «محمود تيمور»

مجموعات قصصية:

زامر الحى
كل عام وأنتم بخير
إحسان الله
خلف اللثام
شباب وغانيات
شفاه غليظة
بنت الشيطان
مكتوب على الجبين
فرعون الصغير
قال الراوى
أبو الشوارب

قصص تمثيلية:

كذب فى كذب
المزيفون
أشطر من إبليس
ابن جلا
فداء
اليوم خمر
حواء الخالدة
قنابل
المخبأ رقم ١٣
سهاد
المنقذة
عوالى
أبو شوشة والموكب

قصص مطولة:

كليوباترة فى خان الخليلى

سلوى فى مهب الريح

نداء المجهول

صور وخواطر:

شفاء الروح
ملامح وغضون
أبو الهول يطير
عطر ودخان
فن القصص
ضبط الكتابة العربية

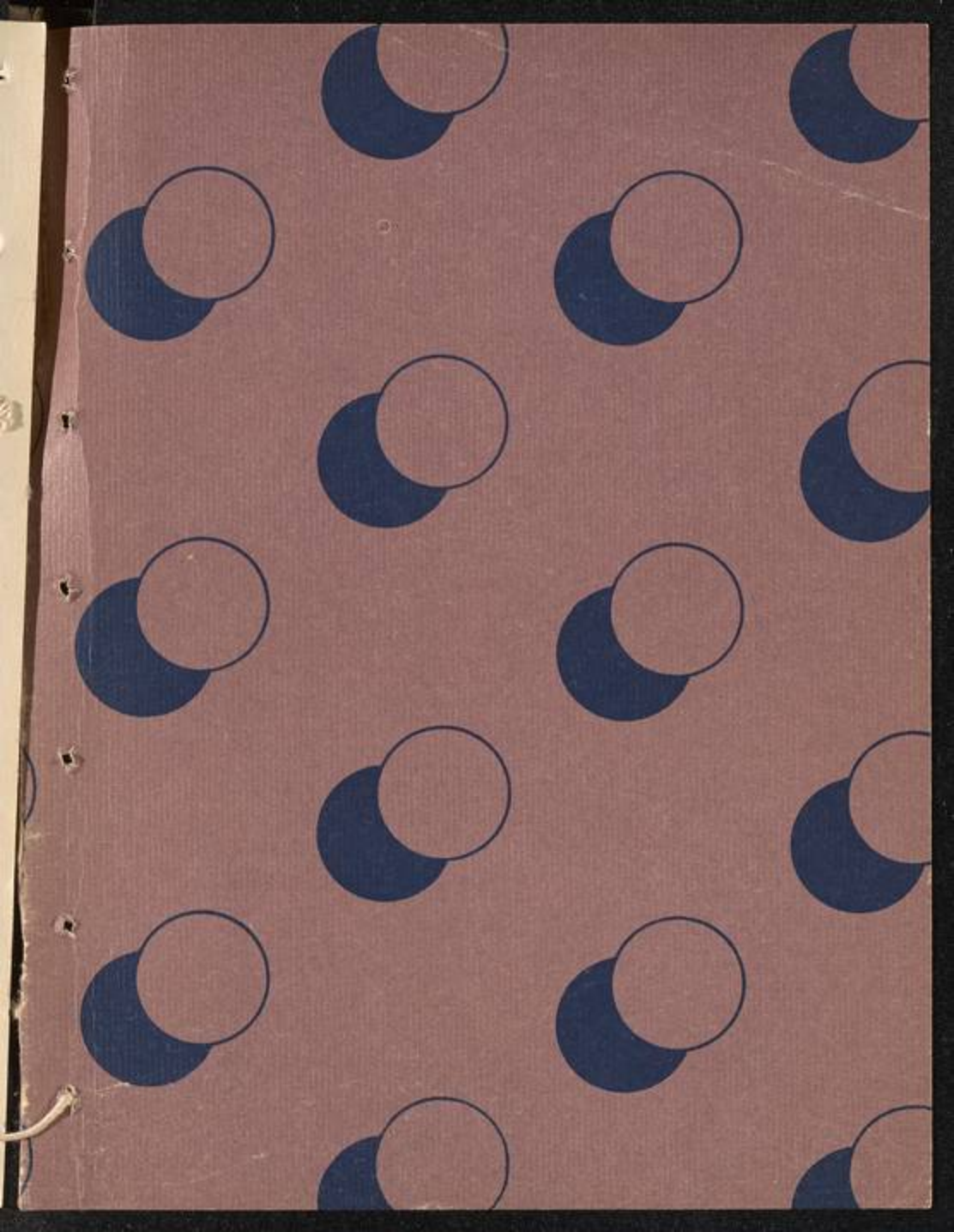

893.7T136
M33

BOUND

SEP 19 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58880658
893.7T136 M33 Abu al-shawarib wa q